من أهل الجنة

ذكريـــات من حيـــاة

الشهيد السيد كاظم عباس -السهلاوي-

بسم الله الرحمن الرحيم

مـــن أهل الجنـــــة

ذكريات من حياة الشهيد السيد كاظم عباس -السهلاوي-

صوت البحرين
VOICE OF BAHRAIN
WWW.VOB.ORG

"قصص الشهداء تعتبر جوهرية، يجب تدوينها وتسجيلها وبعد ذلك نشرها"

الإمام الخامنئي "دام ظله"

صباح العروج...

كُنت جالساً في زاوية الزنزانة، فأنا محكومٌ بالسجن لسنوات لا تحصيها أصابع اليدين. هنا في سجن جو المركزي، أو ما يسمى بمركز الإصلاح والتأهيل، وبالتحديد في مبنى ٤ / عنبر ٨.

السرير من طابقين، على سريري العلوي ذو الفراش المهترئ لم أنم منذ صلاة الصبح كعادتنا في السجن، إذ نستيقظ منتصف الليل ونبقى حتى وجبة الإفطار. ظللت أحدّق في السقف، فيما تحلّق أفكاري خارج أسوار هذا السجن.

على غير العادة؛ دخل أحد المعتقلين تسبقه ملامح الحزن والأسى، اقترب مني ونظر يمنةً ويسرةً ثم همس لي: "لقد استشهد سيد كاظم فجر اليوم، أرجو أن تبلّغ قريبه بطريقه مناسبة".

قبل أيام جاءني هذا «القريب»، وطلب مني كتابة رسالة إلى السيد كاظم، وأخبرني أنه قد طلب من بعض أصدقاء السيد كاظم وبعض الشخصيات الكتابة أيضاً إليه، وذلك لإرسال مجموعة كبيرة من رسائل الدعم والتضامن معه في محنة المرض.

قال لي "القريب":

إن المرض قد انتشر بشكل كبير في جسد السيد كاظم، وأنه -في أغلب الأوقات- يكون في حالة فقدان للوعي، و أنه بات لا يستطيع إلا تحريك جفن عينه..

وأنه .. وأنه .. وأنّات.

كيف هي حال أهله، والده ووالدته؟ وكيف هي حالتهم النفسية ومدى استعدادهم!

إنهم على درجة من الإيمان تؤهلهم للصبر على البلاء.

هذه الحادثة كانت كافيةً لي لأعرف مدى ارتباط هذا «القريب» بالسيد كاظم، فقد كان يسعى بكل وجوده رغم ظروف السجن والاعتقال إلى دعمه

والوقوف إلى جانبه في صراعه مع هذا المرض العضال. ورغم أنه كان على معرفة بالحال الصحيّة المتردية للسيد كاظم وعلمه بضآلة احتمال تماثله للشفاء -باستثناء نزول اللطف الإلهي- إلا أن الجرأة فارقتني لإخباره بنبأ استشهاد السيد، فما أعرفه عن علاقتهما وضعني في موقف شديد الصعوبة، لإخباره بهذا النبأ الفجيع، نبأ عروج توأم روحه، ونفسه ألتي بين جنبيه.

بقيتُ أفكر في طريقة أخرى لأخبره، فمرّت في ذاكرتي تلك الجلسة التي أخبرني فيها أن السيد كاظم وبعد أن أُفرِج عنه لتدهور صحته بشكل حاد، وفقدانه للبصر، وبعد إجراء عملية جراحية إليه، عاد إلى السجن لزيارة أخيه المعتقل فور تحسن صحته نسبياً ومقدرته على الحركة، وقد كانت معنوياته عاليةً جداً، قلت في ذهني: "ما هذه العظمة التي ولدت داخل هذا الشاب؟! فقد بصره وصحته داخل هذه المقبرة المسماة بمركز الإصلاح والتأهيل، ثم يعود برجليه إلى هذا المكان؟! إلى المكان الذي فتك ببدنه! بينما قد ينفر أي شاب في مثل حاله من مجرد ذكر اسم المكان الذي لاقى فيه الأمرّين، من سجن وبلاء، فضلاً عن العودة إليه طواعية تحت أي سبب!!».

لم أجد تفسيراً منطقياً لهذا الأمر وهذه الروحية، فالمنطق لا يكفي لفهم أرواح الشهداء، والإجابة الوحيدة التي تبادرت في ذهني هي إنّ هذا السيد الشاب لم يرَ في السجن ما أراه من بلاء، إنه ممن أعدوا أنفسهم ليكونوا شهداء، إنه تلميذ في مدرسة ، «ما رأيت إلا جميلاً».

****

في ذلك الصباح، وبعد أن وصلني خبر استشهاد السيد جلست مع «القريب» وتحدثتُ معه في غير حديث، بقيت أقلب الكلام وأراجعه في عقلي لنحو نصف ساعة، محاولاً إيجاد صيغة أخفّف بها من وقع الخبر.

الموت حق.. وكلنا سائرون إلى حتفه.. فنحن نسير في هذه الدنيا والموت

كوحشٍ بريٍّ ينهش في أعمارنا.. والموت يا صديقي لا يعرف ملكاً أو عبداً أو مريضاً أو معافى، نحن في هذه الدار أسرى لكل البلاءات والاختبارات التي تنزل علينا -ومنها سجننا هذا- وفقد أحبتنا ورجوع أنفسهم مطمئنة إلى الله، كل ذلك لا يهدّ من عزمنا، بل نجد طريقاً للصبر والجلد.

"أنت يا ريحانة القلب حقيقٌ بالبلاء.. إنما الدنيا أعدّت لبلاء النبلاء"

أخي لقد رحل الحبيب.. لقد ترجّل الفارس.. استشهد رفيقنا «السيد كاظم».

عمّ في الزنزانة صوت صمت الموت، وسرعان ما تغيّرت ملامحه واكتسى وجهه بعلامات الدهشة ممزوجةً بالأسى والألم، غارت عيناه ودارت في محجرها واغرورقت بالدموع..

وقام...

التفتُ وقلت لا تحزن إنّه

«من أهل الجنة»

توطئـــــة

الكتابة عن الشهداء واجبٌ لاثنتين؛ أما الأولى: فالوفاء لهم وحفظ تاريخهم المشرق بنور الشهادة والعبودية لله عز وجل. فالشهداء يضحون بأغلى ما يملك الإنسان في هذه الدنيا، ورأس ماله الوحيد وهو العمر في سبيل مرضاة الله سبحانه وتعالى. فالكتابة عنهم وعن ذكرياتهم حاجةٌ لنا كي نتخذهم نبراساً يضيء لنا طريق العزّة والكرامة.

وأما الثانية: فهي تخليد تاريخ التضحيات والشهادة والنضال في سبيل الله، فالكتابة هنا كتابة تاريخ الشعب الذي ضحى بأطفال ونساء وكهول وشباب، بين السجن والنفي والقتل. فالشعب الذي لا يعرف تاريخه وتاريخ عظمائه ومنهم الشهداء شعبٌ لا يملك مستقبلاً إلا مستقبل الهوان والذل والاستسلام.

"من أهل الجنة" كتابٌ يضم مجموعة من ذكريات الشهيد السيد كاظم عباس السهلاوي، وضعت أولى كلماته بخط يد إخوانه السجناء، هناك في سجن جو المركزي، حيث سُجِن وعانى، حيث سجد وصلّى، حيث أضربَ، حيث قام الليل وصام النهار، وواصل طريق المقاومة والنضال والانحياز إلى الحق.

كان السجناء يستلغون الاتصالات الأسبوعية لإجراء المقابلات مع العديد ممن وردت شهاداتهم في هذا الكتاب، إضافة للكثير من السجناء الذين لا زالوا يقضون مدداً متفاوتة من الأحكام السياسية الجائرة.

نسّقوا الكتاب وأثروه رسماً ونقشاً، ووضعوا أرواحهم فيه، ونجحوا بإرساله إلى خارج السجن ليكمل الكتاب مسيرته على أيدي رفاق الشهيد السيد كاظم، ويصل إلى أيديكم في أربعة فصول رُتبّت على التبويب التالي:

١- رَبَّيْتَني في نِعَمِكَ

حول طفولة السيد كاظم وحياته الاجتماعية.

٢- في مَيادِينِ السابِقينَ

عن مسيرته الجهادية وحضوره في الانتفاضة.

٣- مُطْمَئِنَّةً بِقَدَرِكَ

عن عذابات الاعتقال والسجن.

٤- مُشْتاقَةً اِلى فَرْحَةِ لِقآئِكَ

الرحلة الأخيرة من الأرض إلى السماء

وقد بُذلت كل الجهود للمحافظة على الأمانة خلال كتابة هذه المذكرات، مع مراعاة المحاذير الأمنية لحماية الرواة من الملاحقة والتضييق من قبل السلطات في البلاد.

في النهاية نتوجه بالشكر لعائلة الشهيد ورفاقه في الميدان، وبشكل خاص إلى المعتقلين المقاومين، وكل المجهولين الذين لو لا جهودهم وتعاونهم لم يكن هذا العمل ليخرج للنور.

رَبَّيْتَني في نِعَمِكَ

سمّيتُه "كاظم"

كان حملي به خفيفاً، فهو سادس حمل لي، والرابع من الأولاد. إنّ مجرد حملي بهذا الابن البار هو شيء مميز. كنت متعلقة جدًا بوالدي الحاج كاظم، وأحبّه حباً جماً فحين وضعتُ مولودي الصغير سميّته «كاظم».

تطابق الأسماء جعل العلاقة وثيقة بين الجدّ وحفيده، إذ كان والدي فلاحاً، يخرج مع خيوط الفجر الأولى إلى «زراعته» ليعود مع اقتراب صلاة المغرب بعد أن يبيع ما يحصد من خضروات. من المواقف التي لا تغيب عن ذاكرتي هو مشهد عودته منهكاً من عمله، نضع له الطعام فيجلس الطفل «السيد كاظم» في حضن جده يشاركه الغذاء ويلاطفه.

لهذا الابن مكانة كبيرة جداً في فؤادي، لا أستطيع وصفها بالكلمات، فهي لا تبلغ شيئاً من إحساسي تجاهه، ولا تعبر عن ماهية ما بداخلي أو ما أكنّه له من مشاعر، فابتسامته لم تغِب عن وجهه منذ طفولته، ولم يؤذِني أو يُشقِني في تربيته ونشأته قط.

حين كَبُرَ وأصبح شاباً مشرقَ الوجه، مربوع القامة، قصدنا بيت الله الحرام والمدينة المنورة لزيارة النبي الأكرم وآله الأطهار (عليهم السلام)، وكانت رحلة جميلة وممتعة، في هذه الرحلة ظهرت صفاته وطيب قلبه في أفعاله وكلماته، فكان يساعد كل من يحتاج إلى المساعدة من المسافرين معنا، وبالخصوص النساء الضعيفات التي لم يكن معهن رجال لمساعدتهن في حمل حاجياتهن ونقلها.

كان يحب الألعاب الشعبية مثل «سكونة» و«الصيدة» ويستمتع باللعب مع أخواته القريبات له العمر. كان يحب الجميع، ويحترم أخواته وإخوانه، الصغير منهم وكبير،وباراً بأمه وأبيه. وحين كَبُرَ كان يحب الأطفال كثيراً، ويحب اللعب معهم وكان على الدوام يأخذهم في رحلات إلى البحر أو الحدائق العامة، ويحرص على أخذهم معه للمأتم ويحثهم على الصلاة في المسجد.

****

كنا دائمي اللعب في المنزل وكنا نسهر دائماً مع بعضنا، وكان أبي ينهرنا عن السهر وإذا ضبطنا متلبّسين يغضب ويعاتبنا.

ذات يوم قمت والسيد كاظم بتجهيز سفرة الأكل، وكانت معنا أختي الأخرى التي جلست بلا حراك، أكلنا حتى امتلأت بطوننا حتى لم نعد قادرين على الوقوف، فقلنا لأختي أن تقوم بتنظيف المكان وترفع السفرة، لكنها رفضت، فاتفقت معه بأن نقوم بالهجوم عليها، وأثناء ركضنا ومزاحنا هذا وقع السيد كاظم عليَّ وأصابت أسنانه جبيني فسال الدم مني مباشرة.

دخل والدي الغرفة ورأى الدم يقطر من رأسي، فغطاه بقطعة قماش وانطلق بي مسرعاً إلى المستشفى حيث قاموا بتقطيب الجرح، وما زال أثر هذا الجرح في جبيني يذكرني بتلك الأيام الجميلة.

****

علاقتي مع السيد كاظم مميزة إذا قارنتها بعلاقتي مع بقية إخواني وأخواتي، فأنا الخامسة في ترتيب العائلة وهو المولود بعدي بثلاث سنوات فقط. كنا نعلب معاً أكثر الوقت ونتشاطر الكثير من الذكريات. حين كبرنا ودخلنا إلى المدرسة، كنا نذهب معاً مشياً على الأقدام، ونتسابق معاً في الطريق، وحين نعود كنا نذاكر الدروس سوياً.

ذات صباح، وفي طريق الوصول إلى المدرسة، كنا نمشي كعادتنا ونتبادل أطراف الحديث، فرأينا كلباً ضالاً، شعرتُ بالخوف الشديد فأمسكت بيده وأخبرته أن يركض، ركضنا سوياً بسرعة وتبعنا الكلب، وكان الرعب يملأ قلوبنا، فانفجرت حناجرنا صراخاً، وسمعنا أحد المارة وسارع برمي حجراً باتجاه الكلب ففرّ هارباً، لكن الهلع كان مسيطراً علينا فواصلنا الركض لمسافة ثم توقفنا لالتقاط أنفاسنا، كنا نلهث ونضحك في اللحظة ذاتها على الموقف، فإننا لم نكن نعلم بأننا لو لم نركض لما كان الكلب ليتبعنا أصلاً.

****

كان السيد كاظم يهتم بأدق تفاصيل ملبسه وهيئته، فكان يقضي أوقاتاً طويلةً أمام المرآة يرتب فيها مظهره، وابتسامته جزءً لا يتجزأ من وجهه وطلّته. في يوم العيد يستيقظ من الصباح الباكر يلبس ثوبه، ويذهب لأداء صلاة العيد، ثم يتوجه إلى المقبرة مع أصحابه، ومن ثم يعود للمنزل ليعايد علينا ويسلّم علينا واحداً واحداً، كما كان يزور أقاربنا بلا استثناء. كان أنيقاً دائماً في هذه الأيام وفي المناسبات الإسلامية، وبعد أن يرتب نفسه يأتي ويقول ما رأيك بأخيك؟ «صاير معرس له».

كان السيد كاظم شاباً مُفعماً بالحيوية، يحب الخير للجميع.فعند دخوله إلى المنزل يبادر دائماً بسؤالي إن كُنت أريد الذهاب إلى مكان، أو إذا ما كنت أحتاج إلى أي شيء، حنونٌ علينا نحن أخواته بصورة خاصة وعجيبة. كثيراً ما يحثني على التقرب الى اللّه في السراء والضراء، وأن لا أقصّر في علاقتي مع اللّه سبحانه وتعالى كي أُوفق وأحصل على التيسير في الحياة الدنيوية والأخروية.

فتى الإيمان

في عام ٢٠٠٦، كان الفتى السيد كاظم يتابع أحداث الحرب في لبنان رغم حداثة سنه، ويلاحق الأخبار من وراء شاشات التلفاز بفضول واهتمام. ورغم صغره؛ إلا أنه تعلّق بالمجاهدين وعشق دربهم. ثلاثون يوماً ونيّف تركت أثراً كبيراً في شخصيته وخياراته المستقبلية، وصاغت شخصيته على اختيار طريق المقاومة والجهاد. فكان يحاول التشبّه بالمجاهدين في أخلاقه وسلوكه اليومي في كل ما سمعه عنهم.

المتفاني

كان السيد كاظم مبادراً منذ صغر سنه للمشاركة والعمل في كل الأنشطة الإسلامية التطوعية.

أُنشئت في السهلة الشمالية مجموعة شبابية تحت اسم "هيئة شباب التفاني" للنهوض بمختلف الأعمال التطوعية، وكان السيد أحد أعضاء هذه المجموعة والمبادرين للعمل والتطوّع في مختلف الفعاليات الإسلامية والاجتماعية.

وكان من أنشطة المجموعة ومشاركاتهم، التعاون مع جمعية الزهراء(ع) للأيتام التي كان يرأسها سماحة الشيخ محمد حبيب المقداد "فرّج الله عنه"، حيث كانت الجمعية تقيم احتفالات للأطفال الأيتام وكان السيد دائم التواجد في هذه المحافل وسواها، وكان يساعد أيضاً مندوب الجمعية في القرية عبر التواصل مع كافلي الأيتام واستلام الأموال وتسليمها.

وكان فاعلاً في مختلف الأنشطة في القرية، فمثلاً حين تعلن الجمعية الخيرية عن حملة لتنظيف المقبرة، أو جمع الأدوية منتهية الصلاحية، تراه المبادر في العمل، أو حين يتجمع الشباب لتنظيف المسجد فإنه أول الحاضرين، ولم تغيّبه الأيام عن الحضور المؤثر في مأتم القرية سواء في احتفالات مواليد أهل البيت(ع) أو شهادة أحد الأطهار(ع).

أمين بالفطرة

توجهنا مشياً إلى مسجد ومرقد العبد الصالح الشيخ عزيز. هذا المقام يزدحم دوماً بالمصلين والزائرين من البحرين وخارجها، وكان للشهيد ارتباطه الخاص به.

كنا ذاهبين في مهمة أوكلتها لنا أخت الشهيد لبيع «قسائم كوبونات» يتوجه ربحها إلى بناء أحد المساجد، أقمنا الصلاة بسرعة وخرجنا عند البوابة الرئيسية لبيع القسائم. وقد كانت القسائم بسعر ٣٠٠ فلس فقط، فتقدم الشهيد إلى أحد الخارجين من المسجد:

السيد كاظم: سلام حجي

المصلّي: عليكم السلام يا ولدي

السيد كاظم: حجي تشتري كوبونات؟ الفلوس حق بناء مسجد

المصلّي: قواك اللّه يا ولدي.. تفضل..

أعطى الحاج السيد ٥٠٠ فلس وقال له بأن المتبقي لكما. وتكرّر الموقف مرات عديدة، وقد استطعنا خلال ذلك اليوم بيع الدفتر بأكمله.

حين عدنا إلى المنزل كانت حصيلة ما ربحناه من بيع القسائم يتجاوز المبلغ المطلوب بطبيعة الحال، لكن السيد كاظم سلّم أخته المبلغ بأكمله دون أن يأخذ منها شيء.

خلفت الموعد

يقول أحد أصحابه: دعوت السيد كاظم ذات مرة لتناول الغذاء في منزلنا في يوم الجمعة، وكانت المسافة التي تفصل منزلهم عن منزلنا. وصل متأخرًا عن الموعد ٥ دقائق. وضعنا الطعام وكان طوال الوقت مطرقاً برأسه إلى الأرض.

ظننت أنّ هناك شيء في الطعام، فسألته: ماذا هناك؟ لماذا هذا التجهم؟

أحمّر وجهه خجلاً: تأخرت على الموعد معك، وأخشى أن أكون قد سببت لك إزعاجاً.

أثار هذا الموقف الدهشة في داخلي، فحتى أنا لم أنتبه إلى أنه تأخر عليّ.

على كل حال، بقينا نتبادل أطراف الحديث بعد الأكل، وإذ أنني كنت أعمل في إحدى الهيئات الدينية كان يصرّ عليّ بأن أخبره إذا كانا بحاجة لأي شيء فهو مستعد وبالخدمة. فقلت له أن المسافة بعيدة بين قريتنا ومنزلكم، لكنه أصرّ علي وقال أن هذه المسافة ليست مانعاً من المشاركة.

ممهد منتظر

للسيد كاظم علاقته الخاصة بالإمام الحجة "عجل الله فرجه الشريف". كان جندياً منتظراً، مُداوماً على قراءة دعاء العهد، يشتاق إلى يوم الجمعة لقراءة دعاء الندبة. فكم من المرات أخذ بيدنا إلى منطقة السنابس للمشاركة في مراسم دعاء الندبة، إلى الحد الذي صرنا فيه من دائمي الحضور، وأصبح القائمون على الدعاء يستعينون بنا لمساعدتهم في خدمة ضيوف الإمام(عج).

وفي الحديث عن علاقته بالإمام المنتظر(عج)، أتذكر مرةً كنا عائدين فيها من أحد الشواطئ التي تبّقت لعامة الناس، ونحن في طريق العودة إلى القرية ارتفع صوت الأذان فتوقفنا للصلاة في مسجد إحدى القرى القريبة.

التحقنا بصفوف الجماعة، وعند نهاية الصلاة لم يُرفع تعقيب وبدأ المصلون في التفرق والخروج من المسجد، تفاجأت بصوت السيد كاظم يرتفع عاليًا «اللهم كن لوليك الحجة بن الحسن...» وأخذ المصلون بقراءة الدعاء معه.

لقد كانت هذه الحادثة غريبة ومفاجئة بالنسبة لي، فمعرفتي بشخصية السيد كاظم أنه ذو شخصية شديدة الحياء والخجل، إلا أن ذلك الحياء تكسّر في هذه اللحظات.

هذه العلاقة الوثيقة كانت تظهر حتى في كتاباته على مواقع التواصل الاجتماعي، مرةً كتب في حسابه على أحد المواقع: "بروح أمك الزهراء لقد تعبنا من أنفسنا، برأس جدك الحسين لقد تعبنا من أنفسنا، نتوب ثم نعاهد وننقض توبتنا ونذنب مرة أخرى..

نموت خجلاً منك يا سيدي

أدّبني يا أبا صالح لكي أليق بعصر ظهورك»

الحصن الحصين

كان السيد كاظم أحد الرواد الدائمين لمجلسنا، وقد اعتدنا في هذا المجلس التحدّث في مختلف القضايا والأمور، وخاصة الأوضاع السياسية في البلاد. وكان السيد قليل النقاش ويكتفي غالبًا بالاستماع.

في أحد الأيام، كان أحد الشباب من أصحاب الفكر العلماني، حاضراً في المجلس وكنا حينها حوالي ثمانية أشخاص، وكان هذا الشخص يتحدّث بسوء عن الجمهورية الإسلامية والعلماء، ولأننا على معرفة بهذا الشخص وبأفكاره فقد كنا نتجنّب الجدال معه.

لا تزال هذه الحادثة محفورة في ذاكرتي، فلم يمر عليّ يوم طوال معرفتي بالسيد كاظم أن رأيته بالصورة التي ظهر عليها في ذلك اليوم، بدأ في الرد على ذلك الشاب والنقاش معه بكل هدوء، ومع اشتداد النقاش بدأ ذلك الشاب في التهجم على العلماء وعلى الإمام الخامنئي «دام ظله»، فاستشاط السيد كاظم غضباً واحمرّ وجهه، ورفع من حدّة صوته حتى كاد أن يصل الأمر إلى التشابك بالأيدي، فتدخلنا وفرقناهما وأنهينا النقاش.

بعد هذه الحادثة قلّل هذا الشخص من حضوره في مجلسنا، وإذا حضر كان يتجنب الحديث في مثل هذه الأمور.

صحيفة الأحرار

قبل ثورة ١٤ فبراير، لم تتوقف يد الظلم والطغيان في التضييق على الناس، حيث لم يكن في البحرين من منصات للتعبير عن آراء الشعب حول القضايا السياسية، فاتخذ الشباب جدران المنازل صحفاً لنشر مظلومية الشعب والمطالبة بالإفراج عن المعتقلين بسبب آرائهم السياسية. وقد طاب للشباب تسمية هذا النشاط الإعلامي بـ «خط صحيفة الأحرار».

ذات ليلة، وبعد صلاة المغرب كنت برفقة اثنين من أصدقائي، فجاء السيد كاظم وجلس معنا. أخبرنا بأنه قد جهّز الأصباغ اللازمة لكي نخرج الليلة للكتابة على الجدران فوافقنا واتفقنا على اللقاء بعد منتصف الليل.

التقينا في فناء أحد المنازل المهجورة، ولا صوت سوى عرير الصراصير، ولا حركة إلى لجرذ يركض في زاوية من زوايا هذا المنزل. لحظات وسمعنا صوت خطوات، جاء السيد كاظم وقد جهّز الأصباغ التي اشتراها من ماله ومصروفه الشخصي لكي نشرع بالعمل. كان أكبرنا لم يبلغ الرابعة عشر بعد، وخط أيدينا سيء، لكننا خرجنا وشرعنا في كتابة الشعارات على الجدران، ومنها: «نطالب بافراج عن المساجين»، "اسمع يا قاضي المحكمة براءة لا مكرمة»،

"يسقط من أجل البحرين دستور ٢٠٠٢".

لا للشعب المستورد

وصلنا إلى قرية الديه وتحديداً قرب مجمع البحرين، حيث كانت قوى معارضة قد أعلنت عن تنظيم مسيرة تحت عنوان «لا الشعب المستورد». كانت قوى المعارضة حينها تنظم الكثير من المسيرات والتظاهرات المندّدة بسياسة التجنيس السياسي التي كشف عنها تقرير البندر، وهي سياسة تهدف إلى تغيير ديموغرافي في البحرين، في إحدى أسوأ الجرائم التي ترتكب بحق الشعوب الأصلية، ولا يشارك النظام البحريني في ارتكابها إلا الكيان الصهيوني الغاصب في أرض فلسطين المحتلة.

جلسنا في انتظار تجمع الناس وكان الجو متوتراً ومخيفاً بعض الشيء، لأن النظام أعلن عن عزمه على قمع المسيرة. حين بدأ التجمع جاء أحد الشباب بيافطة "بنر" وطلب مني ومن السيد كاظم، إذ كنا صغاراً في السن، بفتح اليافطة والتقدم إلى الأمام لكي يتجمع الناس خلفها وتنطلق المسيرة.

تقدمنا باليافطة وتجمع الناس خلفها رافعين الشعارات المندّدة بالتجنيس السياسي والمطالبة بالإفراج عن المعتقلين، ولم تجرؤ قوات النظام على قمع المسيرة في ذلك اليوم.

في مَيادِينِ السابِقِينَ

صحوة الربيع

كان ربيعاً؟ أم خريفاً؟! بدأه محمد البوعزيزي مشعلاً نفسه ناراً، بعد أن أحالته نار الظلم والفقر رماداً. من تونس إلى مصر، سقط بن علي في الأولى وسرعان ما لحقه حسني مبارك.

والبحرين منذ قديم الزمن أرض ثورة ونضال، والطوفان الذي بدأ في تونس لم يكن ليقف عند حد بلدٍ ما لم يكن هناك إصلاح في البلاد فيه منفعة للعباد، ويحقق للشعوب مًا يتطلعونه من العزة والكرامة.

كانت البلاد في نهاية العام ٢٠١٠ ومطلع ٢٠١١ بين شدّ وجذب، بين مؤيد لدعوات «يوم الغضب البحريني» وأخرى ترى أن الوقت والظرف غير مناسبين. وكان الشهيد السيد كاظم على اطلاع ومشاركة عبرٍ المنتديات الالكترونية كالصرح الوطني وملتقى البحرين والتي كانت مسرحاً للنقاشات في الملفات السياسية حينها.

لقد كان السيد كاظم منذ نعومة أظافره يرافق والده على الدوام لصلاة الجمعة خلف سماحة آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم في جامع الإمام الصادق(ع) بالدراز. وبعد كلمة الشيخ القائدٍ التي سبقت يوم الرابع عشر من فبراير بأيام ازداد السيد قناعة وإصراراً على المشاركة والانتفاض على الطغيان في البحرين.

يوم الثورة

الثورة تبدأ من داخل الإنسان، أن يثور المرء على نفسه، على خوفه، على رغباته، الثورة سيرٌ حثيث على طريق ذات الشوكة، سيرٌ بلا توقف حتى انتصار الحق.

كان يوم ١٤ فبراير ٢٠١١ يوماً من أيام الله ويوم انتصار الشعب، فمنذ اللحظة التي انتفض فيها الشعب على الظلم والجور كان الانتصار، ففي ثقافتنا: أن الانتصار يكون بأداء التكليف وأما النصر المادي فهو قادمٌ لا محالة، فالشعوب لا يمكن أن تُهزم، هذا ما يُحدّث به التاريخ، وهذه سنن الله التي لم نسمع عن استثناء انتصر فيه الطغاة على شعوبهم.

خـرج السـيد كاظـم في ذلـك اليـوم كباقـي أبنـاء الشـعب حامـلاً الـورد في يـد، وفي الأخـرى أحـلامٌ لابـد مـن العمـل لتتحقـق لنيـل الكرامـة والحقـوق. كان عازمـاً علـى التوجـه إلـى قريـة الديـه أو السـنابس، إذ كان مـن المخطـط أن تخـرج المسـيرات نحـو دوار اللؤلـؤة. إلا أن قـوات النظـام حوّلـت المنطقتـين إلـى معسـكرات أمنيـة زئكنـات عسـكرية، وقمعـت المتظاهريـن هنـاك بشـكل وحشـي، مـا أسـفرعن ارتقـاء أول شـهداء الثـورة الشـهيد "علـي مشـيمع" برصـاص الشـوزن.

لـم يجـد السـيد كاظـم بُـدّاً مـن المشـاركة في السـهلة الشـمالية سـبيلاً للحضـور الفاعـل مـع أبنـاء الشـعب، وجلـس علـى الرصيـف المقابـل لمسـجد الشـيخ عزيـز مـع العديـد مـن أبنـاء وطنـه يرفعـون الشـعارات بـكل سـلمية، وقـد كان عـدد المعتصمـين يتزايـد حتـى حـان موعـد صـلاة المغـرب التـي أقيمـت جماعـة علـى ذلـك الرصيـف. أقيمـت الصـلاة جماعـةً بإمامـة الشـيخ علـي بـن أحمـد الجدحفصـي، وبعـد الصـلاة في ذلـك الجـو الثـوري الحماسـي راح المصلّـونٍ يرفعـون دعـاء الوحـدة الإسـلامية أمـام أسـماع قـوات النظـام التـي تبعـد أمتـاراً بسـيطة فقـط.

كان السـيد كاظـم جالسـاً علـى الرصيـف، فيمـا كان عـدد مـن الشـباب يرفعـون الشـعارات في وجـه قـوات النظـام «سلمية..سـلمية" وكان شـباب آخريـن يحرصـون علـى بقـاء الجميـع فـوق الرصيـف كـي لا تكـون إعاقـة الحركـة المروريـة حجـة لقمـع هـذه التظاهـرة. وعلـى حـين غـرّة انقضّـت مرتزقـة النظـام علـى المعتصمـين، وأغرقتهـم بالقنابـل الصوتيـة التـي تصـمّ الآذان، وقنابـل الغـاز السّـام، لتقمـع بذلـك التجمـع الحاشـد ظنـاً منهـا بـأن هـذا القمـع سيُعيـد النـاس لبيوتهـا.

لقـد كان ١٤ فبرايـر ٢٠١١ علامـة فارقـة في حيـاة السـيد كاظـم منـذ ذلـك اليـوم، إذ حمـل مسـؤولية الاسـتمرار في هـذه الثـورة حتـى آخـرٍ يـوم في حياتـه، لـكأن الشـرارة التـي أطلقهـا الشـهيد علـي مشـيمع اسـتحالت نـاراً في قلـب السـيد كاظـم فحملهـا، إلـى أن تحولـت الشـرارة إلـى نـار ذاب فيهـا عشـقاً.

ميدان الشهداء

تسارعت الأحداث بعد يوم ١٤ فبراير بشكل كبير، واشتعلت نار الثورة في نفوس أبناء شعب البحرين، وكان السيد كاظم حاضراً في كل مفصل من مفاصل الثورة وأحداثها الدامية، وكانت كل جريمة يرتكبها النظام تزيده قناعة في طريق الثورة.

حضر الشهيد دوار اللؤلؤة، ولم يفارقه يوماً طيلة أيام الاعتصام، وكان ينتقل بين الخيام، ويستمع إلى المحاضرات والنقاشات حول الثورة ومستقبلها.

ضاق النظام ذرعاً بصمود الشعب وثباته في دوار اللؤلؤة، اقتحم الدوار، فجر الخميس الدامي، كسّر العظام، وما كُسِّرت الإرادة، وهشّم الجماجم ولكن الرؤوس بقت شامخة، وأزهق النفوس وهي لم تركع لغير خالقها.

عاد السيد كاظم مع من عادوا في ملحمة السلمية التي سطّرها الشهيد «عبدالرضا بوحميد"، الذي انتصر على جيش البحرين المدجّج بالسلاح بهامته الشامخة ليكون فاتح الميدان. وبقي السيد كاظم في ذلك الميدان لا يفارقه إلا قليلاً.

حين وصلت الأمور إلى يوم أحداث المرفأ كان السيد كاظم حاضراً في ذلك اليوم، وعلى صغر سنّه كان صلباً وثابتاً في الميدان جنباً إلى جنب مع الشباب السلمي المقاوم. ولم يغادر الميدان إلا عندما أعلن النظام فرض قانون الطوارئ وهجمت القوات الغازية على الميدان بوحشية وانتقام، وكان شاهداً على تلك الجرائم.

الاعتقال الأول

الجيش منتشر في الشوارع، عمليات قتل عشوائية، اعتقالات على الهوية، جرائم متعددة ولا تحصى ارتكبها النظام والقوات الغازية التي استدعاها للاستقواء على الشعب الأعزل، جرائم تكاد في وحشيتها أن تماثل جرائم محاكم التفتيش.

أرخى الليل سدوله، ولم يغمض جفن لأبناء البحرين، فهذه الأيام هي من أكثرها سواداً، وأحلك من ليلة بلا قمر. يروي السيد كاظم: "كنت قد عدت إلى المنزل في الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل، فقد اعتدت السهر هذه الأيام حتى هذا الوقت». وكانت يد الإجرام تمعن في الإرهاب وتتخذ ظلام الليل ستاراً لإخفاء وجهها القبيح، فتتم مداهمة المنازل واعتقال الأبرياء من أبناء الشعب.

"لم أكن قد غفوت لنصف ساعة، و إذا بصوت تكسير الباب يطرق مسامعي، وأصوات الجري والصرخات من عشرات الرجال داخل المنزل، فتحتُ عيني لأجد عشرات الأوجه المخفية خلف أقنعة سوداء تحيط بي» لماذا القناع يا ترى؟! هل يخافون مني؟! ولماذا يخافون مني، بل لماذا لا ينزعون الأقنعة عن وجوههم حتى بعد أن يقوموا بتصميد عيني؟!

"اقتادني أربعة من الجنود المدجّجين بالسلاح إلى سيارة، فيما بقي الآخرون داخل المنزل. أصعدوني إلى السيارة بعدد من اللكمات والضرب بالسلاح على رأسي، والركل من الخلف. حين دخلت السيارة وأنا مغطى الوجه صعد أحدهم في المقعد الأمامي وكان يتحدث في الهاتف، وقد استطعت أن أسمع من خلال الهاتف صوت طفل يحادثه؛

قال الجندي: أنا الآن في العمل وبمجرد انتهائي سأعود للمنزل، وأغلق الخط.

قلت بسخرية: لماذا لا تقول لابنك أنك تداهم منازل الناس وتعتقل أبنائهم؟

استشاط غضباً وانهال عليّ بسيل من السباب والشتم، والصفع على الوجه، حتى أنهكه التعب وأخذ منه الجهد مأخذه وصار يلهث مستعيداً أنفاسه».

كانت الأجواء في تلك الأيام مرعبة ومخيفة، والليالي تمر ببطىء، ومن يُعتقل لا يُعرف عنه خبر ولا يأتي منه نبأ، وكأن الأرض انشقت وابتلعته، تبتلعه في إحدى طوامير التعذيب والإرهاب، فلا يظهر إلا في شاشات الإعلام العوراء التي تنشرمقاطع «اعترافات» المعذَّبين بعد ليالٍ طوال من الضرب والصعق بالكهرباء وغيرها من أساليب التعذيب.

يكمل السيد: "اقتادوني إلى أحد مراكز التحقيق وأبقوني في ممر مع عشرات من المختطفين الآخرين، وكان الصمت يخيّم على المكان، والظلام

بعيون كل الأسرى المصمّدة، ولا يخترق الصمت سوى صوت صرخة هذا أو أنّة من ذاك».

أدخلوني إلى غرفة التحقيق ومن خلال الصوت الذي كنت أسمعه فقد كان في الغرفة ثلاثة أشخاص أو أكثر. اقتادني الجندي بعنف ثم أوقفني فجأة بصفعة على رأسي وصرخة: اجلس.

جلست على كرسي، وكانت هناك طاولة أمامي. تحدّث أحدهم: نريد أن نريك بعض الصور، ثم سنسألك بعض الأسئلة، إذا تعاونت فستعود إلى المنزل، وإذا لم تتعاون فإن لنا طرقاً تجعلك تتعاون «وأنت تختار يا بالطيب .. يا بالغصب».

فتحوا جزءاً من «الصماد» الموضوع على عيني وعرضوا عليَّ صوراً من أحداث «المرفأ المالي»، وسألوني عن بعض الشباب المتواجدين في الصورة لكني أنكرت معرفتي بأيٍّ منهم، رغم أنني كنت أعرف بعضهم. لم يدم التحقيق طويلاً فقد كان هناك عشرات الشباب ينتظرون دورهم.

بعد الإفراج عن السيد كاظم تبيّن أن اعتقاله في تلك الليلة لم يكن إلا اعتقالاً عشوائياً، فالمقصود بتلك المداهمة كان أشقاؤه الذين يكبرونه سناً وتم اعتقالهم لاحقاً لمدة.

بصيرة مجاهد

مع فترة الطوارئ وقيام النظام بقمع الاعتصام المركزي وهدم دوار الؤلؤة، أخذ الحراك في البحرين شكلاً جديداً، وانتقل التجمع المركزي إلى مختلف المناطق في البلاد التي كانت تخرج في تظاهرات ليلية بشكل رئيسي، إضافة للفعاليات التي بدأت في تنظيمها الجمعيات السياسية.

في أوائل هذه الأيام لعب السيد كاظم دوراً مهماً في خروج المسيرات في السهلة الشمالية، فقد أشار بعض الشباب الثوريين علينا بالتوجه لمناطق ذات حراك ثوري قوي مثل السنابس، لأن عددنا القليل وهذا سيجعلنا مكشوفين أمام أعين النظام، وسيسهل اعتقالنا وملاحقتنا، لكن المسيرة الأولى خرجت رغم عددنا القليل جداً، واستمرت المسيرات بشكل دوري حتى اتسعت رقعة المشاركين وصارت هذه المسيرات جزءاً من الحراك في

القرية واستمرت بفضل الله. ولم يكن السيد كاظم يتغيّب في حال من الأحوال عن المسيرة بل كان دائم الحضور فيها بشكل فاعل.

الاعتقال ثاني

في يوم ميلاد السيد كاظم من العام ٢٠١١، كنا في منزل أحد أقاربه في قرية عالي، وقد أعلن الشباب عزمهم على الخروج في مسيرة عصر ذلك اليوم، رغم الانتشار الأمني وتواجد الجيش في الشوارع.

خرجنا من المنزل نمشي باتجاه المكان المعلن لانطلاق المسيرة، وكانت المسافة تقدر بربع ساعة من المشي على الأقدام، إلا أن الأوضاع تجعل المسافة تكبر والوقت يزيد، فقد كنّا على وجل ودائمي الترقب والمراقبة للأوضاع من حولنا لعلمنا بانتشار قوات النظام وملاحقتها أي مواطن في الطرقات لاعتقاله والتنكيل به، فجرائم النظام لم تتوقف منذ إعلان حالة الطوارئ.

وصلنا إلى نقطة انطلاق المسيرة بعد جهد جهيد، ولم نلبث أن تفاجأنا باندفاع سيارات قوات النظام ذات الدفع الرباعي مُحاولةً دهس الشباب بسرعة جنونية، انتشر الشباب بشكل فوري هرباً من القتل فيما وقف آخرون في الأزقة وشرعوا في رمي المركبات بالأحجار. توقفت المركبات وترجل المرتزقة بأسلحتهم وبدأوا في ملاحقة الشباب في أزقة المنطقة.

كنت مع السيد كاظم في مجموعة من خمسة عشر شخصاً تقريباً، وكان المرتزقة يلاحقونا كالضباع المنقضة على فريستها، أطلقنا الساق للريح، حتى خارت قوانا وحوصرنا في مساحة صغيرة محاطة بمنزلين، اتجه الشباب بشكل سريع إلى المنزل الأول لكن بابه كان مقفلاً، فاضطررنا إلى اللجوء إلى المنزل الآخر وقد كان قيد الإنشاء. حشرنا أنفسنا نحن الخمسة عشر داخل المنزل عبر نوافذه، ولم تسنح لنا الفرصة لالتقاط أنفاسنا حتى دخل المرتزقة إلى المنزل وبدأوا بملاحقتنا داخل ممرات المنزل.

حوصرنا في نهاية أحد أروقة المنزل، أمامنا سور المنزل وخلفنا قوات النظام وقد وصلوا على بعد أمتار بسيطة منا، كنت بجانب السيد كاظم ونحن نشاهد بعض الشباب يتسلقون السور.

خلال لحظات غيّر السيد كاظم وجهته واستدار لمواجهة المرتزقة الذين أمسكوا بأحد الشباب، فبدأ السيد كاظم بمواجهتهم بقبضته العارية، فانضممت إليه بعد أن أحسست بأن لا مفر من الاعتقال، ودخلنا في معركة بالأيدي والأرجل نحن الثلاثة مع قوات النظام فتمكنت بقية المجموعة من النفاذ بجلدها والنجاة من الاعتقال.

تكاثرت علينا قوات النظام كقطيع من الذئاب، والكثرة تغلب الشجاعة، فأحاطونا من كل جانب وأوسعونا ضرباً قبل اقتيادنا إلى مركباتهم، وكانوا طوال الطريق يتناوبون على ضربنا وشتمنا وهم يلهثون، كان أحدهم يحاول استعادة أنفاسه، وهو يقول: "تعّبتونا يالكلاب..أنا أراويكم"، وكان السيد كاظم بجانبي، فعَلَت وجهه ابتسامة.

أركبونا في مركبات الشرطة في المقعد الخلفي، حيث يجلس المعتقل في الوسط وعلى يمينه ويساره اثنين من المرتزقة، كنت أنظر إلى الأمام فإذا بلكمة من الشرطي الجالس إلى جانب السائق - هو ذاته الذي هدّدنا - يصرخ عليّ بأن أنظر إلى الأسفل.

أنزلونا نحن الثلاثة في إحدى الساحات البعيدة الواسعة في أطراف القرية، وكنت على وجل من أن يقوموا بالتحقيق معنا وسؤالنا عن بقية الشباب. وفي غمرة التفكير هذه؛ إذا بلكمات وركلات تنهال على أجسادنا من كل حدب وصوب، فاستلقينا على الأرض لحماية أنفسنا، هذا يضربنا بكعب سلاحه، وآخر يبصق علينا، وثالث يركلنا والشرر يتطاير من أعينهم. تناوبوا علينا مجموعة بعد أخرى لمدة ساعة تقريباً، أشبعونا فيها من الضرب وصبوا فيها جام غضبهم علينا، حتى أدمونا وتمزقت ملابسنا.

بعدها جاء الضابط وقال لنا بأن نبقى على الأرض وأمر المرتزقة باستقلال المركبات وانطلقوا ليتركونا في حالة سيئة لا نحسد عليها.

فداء لزينب

في أثناء الحرب الكونية على سوريا واقتراب شذّاذ الآفاق من حرم السيدة زينب عليها السلام، كان قلب السيد كاظم معلقًا بضريح عمته، ولسان حاله «لن تُسبى زينب مرتين».

وعلى الرغم من كون الثورة في البحرين في ذروة الحراك، إلا أنه كان يتابع الأحداث المتسارعة والأوضاع المأساوية في سوريا، وخاصة بعد توافد المدافعين عن حرم أهل البيت عليهم السلام لحماية المقدسات الإسلامية من أيدي التكفيريين.

كان السيد كاظم لم يتجاوز الثمانة عشر ربيعاً، وكان يتابع الأخبار عبر مواقع التواصل الاجتماعي وقام بالتواصل مع أحد الإعلاميين المتواجدين في سوريا. كان ينبع حماسةً وإقدام، فأبلغ هذا الإعلامي بأنه يود الالتحاق بالمدافعين حرم السيدة زينب عليها السلام.

أكبر الإعلامي هذه الحماسة والإقدام لدى السيد كاظم، وطلب منه الاكتفاء بالدعم الإعلامي والدعاء للمجاهدين، والتركيز على الثورة في داخل البحرين.

القائد الميداني

مع اعتقال عدد كبير من أبناء السهلة الشمالية، برز السيد كاظم كقائد ميداني في الحراك الثوري في القرية، وأخذ على عاتقه مسؤولية النهوض بالحراك وترتيب المسيرات والعمليات الاحتجاجية.

كان السيد كاظم يقوم بغالبية العمل بنفسه، حيث أدت الاعتقالات وطول فترة الثورة إلى سكون بعض الشباب. فعلى سبيل المثال: كان يتوجه إلى مناطق بعيدة لجلب الإطارات في سيارته الشخصية، ثم يتوجه إلى محطة البنزين لتعبئة البنزين لاستخدامه لاحقاً في العمليات.

لفترة كنا نستخدم حافلة لنقل هذه الحاجيات، لكن صاحبها اضطر لبيعها بعد تعرضه للتحقيق والمضايقات من قبل وزارة الداخلية. لذلك

أصبحنا نستخدم سياراتنا الشخصية لنقل الإطارات والبنزين. كنا نستخدم أغطية منزلية كالسجاد أو الفراش لتغطية هذه الحاجيات أثناء نقلها من مكان لآخر، فكنّا ننقل الإطارات في صندوق السيارة، ونضع مجموعة أخرى في المقاعد الخلفية ونغطيها، فكان من الواضح للعيان أننا نقوم بنقل شيء في السيارة وكان ذلك سبباً في صعوبة التحرك بها.

لحل هذه المشكلة قررنا أن نقوم بتركيب ستارات على نوافذ سياراتنا، لكن تركيب هذه الستارات كان مكلفاً قليلاً، فطلبت من إحدى الجهات التي تدعمنا بالمال إذناً شرعياً لكي نقوم بشراء هذه الستارات، وحين حصلنا على الموافقة قمت بتركيبها فوراً، أما السيد كاظم فقام بتركيبها من ماله الشخصي.

هذا العمل، وفي تلك الأجواء الأمنية المشددة كان خطراً، وكان الجزء الأصعب هو العمل على إخفاء هذه الأدوات والمعدات كي لا تصل لها أيدي عناصر النظام، فقد كانت الدوريات الأمنية تجوب المناطق وتصادر هذه الأدوات إن وجدها، فكان السيد كاظم ومن معه يضطرون لإخفاء هذه المعدات في أماكن بعيدة نسبياً على قلب القرية، ويتكفلون عناء نقلها إلى أماكن قرب مراكز تجمع الشباب قبل استخدامها بمدة بسيطة كي لا يتم مصادرتها.

كان شعلة نشاط في العمل الثوري ويعيش هم الثورة، فلم يكن يمر عليه يوم في الأسبوع إلا ويقوم فيه بمهمة ما. ففي يوم الخميس، كان يقود المسيرات الليلية في القرية أو يجهز زجاجات المولوتوف التي تستخدم في مواجهة قوات النظام، وينسق مع الشباب لمراقبة تحركاتهم، ويقود الشباب بنفسه في الميدان، وكانت هذه المواجهات تستمر إلى أوقات متأخرة من الليل.

ويوم الجمعة، كان برنامجه الأسبوعي ثابتاً بالتوجه والمشاركة في المسيرات والتجمعات المركزية، ثم يعود ليلاً لتنظيم المسيرة الليلية في القرية فإما يخرج لمراقبة تحركات قوات النظام، أو يتقدم المسيرة بحمل اللافتة أو حاملاً مكبّر الصوت ورافعاً الشعارات الثورية. لقد كان مصداقاً لـ «حيث يجب أن نكون سنكون».

لقد ضربني

في إحدى ليالي الجمعة، وقد كانت هذه الليلة معروفة باشتعال المواجهات واشتداد القمع لما تشهده مختلف قرى البحرين من مسيرات واحتجاجات ليلية، ولم تكن السهلة الشمالية استثناء؛ بدأ الشباب في إغلاق منافذ القرية يقودهم السيد كاظم. وكانت هذه المهمة حساسة بشكل كبير قبل أن يتوجه الشباب إلى الشارع العام، لما تشكله من حماية لظهر الشباب وتأمين لحياتهم من عمليات الدهس بالمركبات التي تقوم بها قوات النظام.

كنت صغيراً حينها، وكنت أسارع في المشاركة مع الشباب في إغلاق الطرق، وأثناء عملي جاء إليّ السيد كاظم وطلب مني العودة إلى المنزل، انقبض صدري، وانتظرت انشغاله بالعمل وقيادة الشباب وعدت للانضمام إليهم. حين رآني اشتعل غضباً وجاء إليّ بشكل سريع وبدأ بضربي والصراخ عليّ حتى أجبرني على العودة إلى المنزل ثم عاد للميدان.

بقيت تلك الحادثة في قلبي، وكنت متضايقاً بشدة من تصرفه معي ومنعي من المشاركة في المسيرة والمواجهات، وبعد فترة طويلة من هذه الحادثة خرجت مع الشباب في تظاهرات يوم ذكرى انطلاق الثورة، فجاء إليّ وأخذني جانباً وطلب مني القيام ببعض المهام. استغربت ولم أفهم هذا التناقض في مواقفه فقد كنت أعتقد أنه لا يريدني أن أشارك في المسيرات والاحتجاجات، ولكن بعد هذه الحادثة فهمت أنه كان ينظر إلينا بعين المسؤولية ويعتبر الشباب أمانة في عنقه يجب الحفاظ عليها.

إني نذرت نفسي

في أواخر العام ٢٠١٤ اتسعت رقعت القمع والاعتقالات بشكل كبير، وقد شهدت القرية بعد هذه الاعتقالات تراجعاً كبيراً في العمل الثوري، وانسحاب الكثير من الشباب من المشاركة في المسيرات ومختلف الفعاليات، لكن السيد كاظم لا يركن للسكون والانكفاء.

بدأت حينها تتشكل مجموعة تضمّ الشباب الثوري من عدة قرى، وحملت اسم «ثوار البحرين» وقد نفذت هذه المجموعة عدداً كبيراً من العمليات في مختلف مناطق البلاد، ومن أهم العمليات تلك التي أشرف السيد كاظم على تخطيطها وقيادتها حيث كانت عمليات إغلاق «هايوي التحرير الدولي» لأكثر من مرة.

هايوي التحرير الدولي هو أهم شوارع البلاد، ويتصل بشكل مباشر بمنفذ البلاد البري مع المملكة العربية السعودية. كان الإعداد لعملية إغلاقه يتطلب الكثير من الجهد والوقت، ولم يكن مع السيد كاظم من الأخوة في منطقته إلا شباباً لا يتعدون أصابع اليد الواحدة يتعاونون معاً لأجل هذه المهمة.

يبدأ الإعداد بتأمين الإطارات الكافية لإغلاق الطريق السريع بأكلمه، فهو يحتاج إلى ما لا يقل عن عشرين إطاراً لإغلاقه بإحكام، وكان تأمين هذا العدد يسبّب مشكلة لنا في بعض الأحيان، فكنا نضطر إلى القيام بجولات في المناطق التي تضم محلات السيارت بحثًا عن إطار هنا او هناك، لكن المهمة الأصعب كانت في إعداد زجاجات المولوتوف لحماية الشباب من قوات النظام المتمركزة هناك، وقد كنا شخصين فقط نقوم بتجهيز ما يزيد عن ١٠٠ زجاجة لهذه العملية.

في إحدى العمليات هناك، اجتمع الشباب من مجموعة «ثوار البحرين» وقد كانت العملية مقسّمة بين شخصين، وكانت مهمة السيد كاظم قيادة المجموعة المكلّفة بالعملية ، فيما كان دوري هو التصوير وقيادة المجموعة الثانية، يقول أحد المشاركين في هذه العملية: «كان الليل حالكاً وباردًا بعض الشيء، والطريق طيني تغوض فيه الأقدام بعد هطول الأمطار قبل يومين. قاد السيد كاظم المجموعة الأولى المكلفة بإغلاق الشارع بالإطارات خلف هضبة صغيرة ممتدة بشكل طولي حتى تصل إلى مشارف الطريق السريع، وأمر مجموعته بالانحناء طوال الطريق، وكان كل شخص يحمل إطارين، وآخرين يحملون البنزين لمسافة تزيد عن ٣٠٠ متر، والأرض زلِقة بسبب الأمطار، وصلنا إلى مشارف الطريق السريع واستلقينا بأوامرَ منه على الطين لالتقاط أنفاسنا بانتظار اللحظة الحاسمة".

كانت المجموعة الثانية أقل عددًا من المجموعة الأولى، وكانت مهمتها تتركز في إلهاء قوات النظام التي تتمركز في الطريق السريع، وتقوم في كل مرة بمهاجمة الشباب برصاص الشوزن أثناء قيامهم بإغلاق الطريق السريع في محاولة لمنعهم من إتمام العملية، لأن إغلاق هذا الطريق كان يشكل ضربة قوية.

في اللحظة الحاسمة خرجت طلائع المجموعة الثانية وهم يحملون زجاجات المولوتوف المشتعلة، وكان غالبية الشباب يرتدون ملابس سوداء، كان يخيّل للناظر أن شعل النار تسير في الهواء باتجاه قوات النظام.

بدأ الشباب في رشق قوات النظام، وحانت لحظة انطلاقنا، كان السيد كاظم يتقدم المجموعة بكل جرأة، وصل إلى آخر الشارع العام ليضع الإطارات التي يحملها، ثم وقف في وسط الشارع ليرتب بقية الإطارات، فقد كانت مهمة الشباب مجرد إيصال الإطارات إلى الشارع والعودة بشكل سريع، كان يرفع صوته بالصراخ على هذا أو ذاك بالإسراع في إشعال الإطارات، وبعد أن تتم العملية بنجاح، كان آخر شخص يهّم بالعودة بعد التأكد من تراجع كل الشباب بسلام.

لم يحدث مرةً أن فشلت عملية من العمليات التي كان ينظمها على هذا الشارع أبداً، فقد كان دقيق التخطيط، ويحرص أكثر ما يحرص على سلامة الشباب قبل أي اعتبار آخر، حتى لو اضطر الأمر لإلغاء العملية.

اسمك معروف عندنا

تراجع العمل الثوري ومشاركة الشباب في العمليات والمسيرات سهّل على الجهاز الأمني في البحرين كشف قادة ومديري المسيرات والحراك الميداني في القرى.

يقول أحد أبناء قرية السهلة الشمالية، والذي تم اعتقاله أثناء تجوله في القرية:

"اعتُقلت بشكل مفاجئ، وكنت ممن يحضرون ويشاركون في المسيرات في القرية. وكان حينها السيد كاظم وآخرين معروفين في القرية بأنهم يقودون الحراك. اقتادتني قوات النظام إلى مركز الشرطة، وهناك بدأ التحقيق معي حول الحراك والفعاليات التي تُقام في القرية. انهال علي الضابط بسيل من الأسئلة:

- "من يطلّع المسيرات في ديرتكم؟ من يشارك في المسيرات؟ من الي يطلعون يحرقون صوب مسجد شيخ عزيز؟»

والعديد من الأسئلة التي الأخرى التي لم يعطني المجال للإجابة عليها، ثم سألني:

- السيد كاظم وفلان وفلان، صح؟

وأراني صورهم.

أخبرته بأني لا أعلم، وإني لا أشارك في هذه الأمور، فابتسم ابتسامة مستخف بكلامي، وأخبرني بأنه سيتم الإفراج عني إذا لم تقم الصفحات الإعلامية التابعة للحراك في القرية بالنشر حول اعتقالي في مواقع التواصل الاجتماعي. وبفضل الله لم يقم القائمون على هذه الصفحات بنشر أي شيء عني، وتم الإفراج عني بعد مرور ساعات.

بعد خروجي التقيت بالسيد كاظم وقادة الحراك وأخبرتهم بما دار في مركز الشرطة والتحقيق الذي جرى معي.

مع ثوار البحرين

حين وصلت لنا الأخبار والتهديدات المبطنة التي كانت ترسلها الأجهزة الأمنية باعتقالنا، اتخذنا قراراً بإعداد الشباب في القرية للحقبة التي ستلي اعتقالنا لكي يستمر الحراك في القرية. ورغم محاولاتنا المتعددة مع الكثير من الشباب إلا أننا لم نوفق في هذا الأمر، فنقلنا جهدنا للمشاركة في عمليات تنظم تحت مسمى «ثوار البحرين» تضم الشباب الميداني من مختلف مناطق البحرين.

شاركنا في عمليات كثيرة في مختلف مناطق البحرين كالديه والدراز والقدم وأبو صيبع والسهلة الجنوبية وأبوقوة وغيرها من المناطق، وكنا ننفذ عمليات في القرية مع هؤلاء الرفاق تحت هذا المسمى أيضاً.

مع الوقت أصبح السيد كاظم يلعب دوراً مهماً في الحراك الميداني على مستوى البلاد، فقد استطاع أن يؤمّن حاجات الثوار في عدد من المناطق والقرى سواء من الإطارات أو البنزين أو غيرها. وقد كانت أعماله الثورية تزداد في تأمين الإطارات في هذه الفترة إلى الحد الذي كانت كل المخابئ المعدة في القرية بمليئة بالإطارات.

أولئك الفتية

خرجنا في إحدى المهام الميدانية التي طُلب منا المشاركة فيها في قرية الصالحية، وحين وصلنا إلى المكان الموصوف، كان في استقبالنا عدد من الشباب الصغار في السن نسبياً. كانت المهمة تتمثل في إغلاق التقاطع بين

قريتي الصالحية والبلاد القديم، وكان يرافقنا بعض الأخوة الذي نعرفهم من مجموعة «ثوار البحرين». جلسنا ننتظر في إحدى الساحات النائية في المنطقة، كل فردين يجلسون قرب بعضهم ويتهامسون، فيما الكل مغطٍ رأسه بلثامه ضمن الاحتياطات الأمنية التي تتبع في مثل هذه العمليات التي يشارك فيها أفراد من قرى متعددة. كان الليل أليل والقمر يضيئ الساحة، حتى طال المُقام ونحن في انتظار أن يأتي الشباب لقيادة المجموعة وتنفيذ العملية.

بدأت الهمسات تنتقل بين الشباب المستعد للعملية، وهمّ بعضهم بالانصراف لما رآه من سوء تنسيق وقيادة للعمل، فقام السيد كاظم بالتواصل مع المنسق الذي طلب منا الحضور، فما كان من الأخ إلا أن طلب من السيد التصرف بما هو يراه مناسباً نظراً للظرف حتى لو استدعى الأمر عدم تنفيذ العملية.

تناقشنا في الأمر مع الأخوين الآخرين من «ثوار البحرين» واتجه السيد كاظم وأحد هؤلاء الإخوة إلى الشخص المعني بعملية من شباب قرية الصالحية، فكان ذلك الفتى يعيش حالة من القلق والاضطراب، وعلى ما يبدو فهو لم يكن يعرف ما يجب عليه القيام به. سألوه عن سبب التأخير المبالغ فيه، فأخبرهم بأن مركبات قوات النظام قد قامت بالتمركز في الشارع المقابل للموقع المزمع تنفيذ العلمية فيه ولا يدري ما العمل!

اتفق السيد كاظم والأخ الآخر على أخذ زمام المبادرة وطلب من ذلك الفتى أن يقود الطريق، على أن تتبدل العملية من عملية لإغلاق التقاطع إلى الهجوم على قوات النظام. اتجهنا نحو الشارع العام وقد استعد الشباب للانطلاق، أشعلوا زجاجات المولوتوف وتقدموا كالبنيان المرصوص، ودكّوا مركبات النظام بالنيران حتى أجبروها على الانسحاب، وعدنا بسلام.

شعر أؤلئك الفتية بعد عودتنا بالانتصار، ووجهوا كلمات الشكر والثناء للسيد والأخ الآخر من كل قلبهم، فقد كانت هذه العملية بمثابة إنجاز بالنسبة لهم.

المثلجات

تواصل معنا منسق «ثوار البحرين» وأخبرنا بحاجته للمساعدة العاجلة في قضية لا تتحمل التأخير، وكانت المسألة تتعلق بشباب من قرية الدراز، كانوا في طريق عودتهم إلى قريتهم وهم ينقلون عدداً هائلاً من الإطارات في سيارة كبيرة. إلا أن أحد أحد إطارات السيارة تعطل في الطريق وأصبحوا في وضع لا يحسدون عليه، خاصة وأن الموقع الذي توقفت فيه السيارة معروف بكثرة تردّد الدوريات التي يستقلها عناصر أمنية مدنية.

على كل حال، اتجهت مع السيد كاظم إلى أؤلئك الشباب وكانوا قلقين جداً، فطلب منهم السيد البقاء في السيارة بانتظارنا لحل المشكلة. وقمنا بنقل الإطارات إلى سيارتينا بكل برودة أعصاب فيما كانت أعين الشابين مسمّرة على الطريق لمراقبة مرور الدوريات الأمنية.

سرعان ما امتلئت سيارتينا إلى الحد الذي كادتا أن تتفجرا من كمية الإطارات، وتبقى عدد من الإطارات في سيارة الإخوة، فاضطررنا على مضض إلى إلقاء هذه الإطارات المتبقية في مكان قريب للتخلص منها. واتجهنا بالشباب إلى الدراز، حيث أدخلونا من زقاق وأخرجونا من آخر بسياراتنا، إلى أن وصلنا إلى أحد المستودعات وقمنا بإنزال الحمولة هناك.

بعد أن انتهينا وقبل أن نهمّ بالانصراف، قال لي السيد كاظم بأنه يشتهي أكل المثلجات من أحد المحلات القريبة، فذهبنا إلى المحل وترجلنا لشراء المثلجات ونحن متسخين تماماً وعلى أيدينا سواد الإطارات ورائحتها تفوح منا.

إصرار وعزيمة

اتفقنا على أن نقوم بعملية لإغلاق تقاطع مسجد الشيخ عزيز بالكامل، والتقاطع نقطة التقاء ٤ مسارات مختلفة ولهذا كان يحتاج إلى عدد كبير من الإطارات والبنزين لإحكام السيطرة على المسارات الأربعة.

قمنا بالتواصل مع منسق "ثوار البحرين"، وذلك لتنسيق حضور مجموعة من ١٥ شخصاً من خارج القرية، فيما كنا حوالي ٥ أشخاص من القرية فقط. ومن جهة أخرى شرعنا في جمع الإطارات وتجهيز الأدوات اللازمة.

في يوم العملية اجتمعنا عصراً في أحد الأزقة، وقد بدأ بعض الشباب من خارج القرية في التوافد، وبعد مرور الكثير من الوقت كان عددنا لا يتجاوز ٩ أشخاص، فأصبحنا في حيرة من أمرنا ورحنا نقلّب الأمر يمنة ويسرة، هل ننفذ العملية؟، أم نكتفي بإغلاق جزء من التقاطع؟ أو نلغي العملية برمتها بسبب قلة عددنا؟

وقد كان مجموع الإطارات يناهز ٢٥ إطاراً إضافة إلى البنزين، وهذا العدد من المعدات كبير على ٩ شباب فقط. وبعد التشاور مع الأخوة قررنا المضي قدماً في تنفيذ العملية، لكننا اضطررنا إلى عمل حيلة لتقليل عدد المكلفين بحمل الإطارات، فقمنا بوضعها ضمن خشبة طويلة حملت فيها ٩ إطارات يحملها شخصين، وكان أربعة آخرين يحملون البنزين ويحملون إطار أيضًا، ووضعنا بقية الإطارات في مقلب النفايات وانطلقنا نحو الشارع العام.

حين وصلنا كان الوضع فوضويًا جداً، ففي العادة يسبق وصولنا إلى الشارع العام مجموعة من الشباب المكلّفين بتأمين الشارع مؤقتاً حماية لنا من عمليات الدهس التي تتكرر بشكل كبير، وإضافة لهم فقد كان هناك أفراداً مكلفين بتوزيع الإطارات وتنظيمها في الشارع لكي تنجز العملية بأسرع

وقت ممكن. كان الوضع فوضوياً فرمينا أنا والأخ الذي معي الإطارات التي نحملها في وسط التقاطع وعدنا إلى الرصيف. أما السيد كاظم وأحد الشباب فقد كانا كالنحلة في وسط التقاطع، يرتبون الإطارات ويركضون بالبنزين هنا وهناك.

الإصابة

في إحدى الفعاليات التي أعلنها ائتلاف شباب ثورة ١٤ فبراير تحت عنوان "عصيان الشهيد"، خرجت في القرية مسيرة كبيرة واجهتها قوات النظام بالقمع ومحاولات الدهس والقتل بشكل هستيري. كانت قوات النظام تقمعنا من أول الشارع قرب مسجد الشيخ عزيز، وبعدها دخلت لتحاصرنا داخل القرية بعيداً عن الشارع العام. كان السيد كاظم يقف أمامهم وجهاً لوجه على مسافة ١٠٠ متر تقريباً وهو يحمل خشبة يحتمي بها من رصاص الشوزن أو استهدافه بشكل مباشر بقنابل الغاز السام.

استمرت المواجهات لساعتين تقريباً وكان السيد كاظم يصرخ فينا للتقدم، ويواجه قوات النظام بالهتافات ورمي الحجارة. كنت واقفاً على مسافة بعيدة نسبياً من الشباب لسببين، الأول هو أنني كنت مكلفاً بالتواصل مع الشباب الذين يراقبون تحركات قوات النظام، فكنت أحتاج إلى الهدوء لسماعهم بوضوح وإخبار الشباب أولاً بأول، والسبب الثاني هو أنني كنت مكلفاً أيضاً بالتصوير عن بعد من أجل مونتاج المسيرة والقمع والمواجهات الذي يُنشر لاحقاً، فأهم ما كنا نحرص عليه هو التصوير وتوثيق كل الأحداث.

على حين غرّة، سمعنا صوت الرصاص الانشطاري الشوزن وكأن يطلق من تحت أرجلنا، توالت الطلقات وكنا لا نعرف مصدرها فتراجع الشباب بسرعة، وشاهدوا عدداً من قوات النظام فوق سطح أحد المباني المكوّن من طابق واحد في منتصف الشارع الذي نقف فيه! كانت مجموعة من قوات النظام في أول الشارع ثم مجموعة صغيرة من الشباب معهم السيد كاظم في الوسط ثم هذا المبنى وفوقه قوات النظام.

استدار السيد كاظم لكي يعود فباغته أحد المرتزقة بطلقة من الرصاص الانشطاري في صدره من مسافة قريبة جداً، ولو لا لطف الله وفضله لفقدنا السيد في ذلك اليوم، فأصيب بعدد كبير من الرصاص الانشطاري في بطنه وصدره ورقبته ورأسه، وكانت الدماء تصبغ قميصه الأبيض.

اتجهنا بالسيد كاظم إلى أحد المنازل القريبة، واستدعينا أحد الأخوة الذين تدربوا على انتزاع شظايا الرصاص الانشطاري، وقد حاول هذا الأخ جاهداً أن يقوم بانتزاع الشظايا من جسد السيد لكنه لم ينجح سوى في استخراج عدد بسيط منها. بعد فترة استطاع أحد الإخوة ترتيب دخول السيد كاظم لأحد المستشفيات الخاصة بصورة سرية، وقد استطاع الأطباء انتزاع الجزء الأعظم من شظايا الشوزن، لكن عدد منها بقي في جسده.

اختلاف لا خلاف

في يوم الرابع عشر من فبراير سنة ٢٠١٥ كانت الأوضاع مختلفة في ذكرى اندلاع الثورة، فعلى امتداد الشهرين الماضيين كانت البحرين مشتعلة بالحراك الميداني وخصوصاً بمنطقة البلاد القديم بعد اعتقال الأمين العام لجمعية الوفاق الوطني الإسلامية سماحة الشيخ علي سلمان. وقد كان السيد كاظم يتوجه للمشاركة في المسيرات التي كانت تخرج هناك في بداية اعتقال الأمين.

وفي يوم الرابع عشر من فبراير وأثناء خروجنا في المسيرة عصراً حدث اختلاف بيني وبين السيد كاظم.

قلت له: «بكون وياكم في المسيرة بس»

قال: «لا تروح، الديرة ما فيها أحد!»

- "ما أقدر لازم أروح، وأنا مواعد واحد من الشباب، وأنت تقدر تتصرف في الديرة»

- "يصير خير"

انتهت المسيرة، والسيد كاظم حانق عليّ بشكل كبير، لكنني تجاهلته وانطلقت مع أحد الإخوة نحو البلاد القديم. وحين وصلنا كانت المنطقة أشبه بمدينة أشباح، لم نرَ فرداً واحداً في الشارع، بل كانت قوات النظام هي التي تتظاهر في ذلك اليوم في كل زقاق من أزقة البلاد القديم، فقررنا العودة إلى القرية للحاق ببقية الحراك.

حين عدنا تهلّل وجه السيد كاظم وقال وهو يضحك: «ها، رجعتون».

كنت أظن أنه سيبقى غاضباً عليّ ويخاصمني، لكن الحادثة مرت وكأن شيء لم يكن.

ملامح غربة

في تلك الفترة تراجع الحراك الثوري في البلاد بشكل كبير بسبب القمع الشديد واعتقال الكثير من قيادات الحراك، وانتقل النظام إلى إفراغ القرى من الشباب الميداني الحركي بخطى خبيثة، فجنباً إلى جنب مع الاعتقالات، كانت السلطة تنظم المسابقات الرياضية على امتداد السنة في مختلف المجالات، وكان لهذا الأمر تأثيره البارز على الحراك.

صارت المسيرات تخرج بقلّة قليلة في القرية، وكنّا نمر أمام المسجد الرئيسي في القرية، يشاهدنا المصلون والخارجون من المسجد وكأننا أطياف أشباح تمر أمامهم، يهربون، أو يتحدثون فيما بينهم وكانهم لا يرون ولا يسمعون.

أصبح الوضع مزعجاً جداً، وبعد نقاش دار بيني وبين السيد كاظم اتفقنا على الحديث مع إمام الجماعة ودعوته للمشاركة في المسيرة أو الوقفات أمام المسجد. فانتظره السيد كاظم أمام المسجد بعد انتهاء صلاة الجماعة

وحدّثه في الأمر، وسرعان ما ترجم هذا العالم هذه المحادثة بالمشاركة في المسيرة أو الوقفة الاحتجاجية لكن مشاركة إمام الجماعة لم تزد عدد المشاركين في المسيرة إلا النزر اليسير.

تدريب

حين برز السيد كاظم كقائد ميداني في القرية وأصبحت مختلف الجهات المعارضة تتواصل معه لتنسيق العمل الميداني، سواء في المسيرات أو حرق الإطارات وقطع الشوارع العامة أو غيرها.

تواصل أحد الإخوة مع السيد كاظم وأخبره بان هناك دورة للتدريب على السلاح والمتفجرات قريباً وقد رشحونا للذهاب إلى هذه الدورة، وحين أخبرني كانت الرؤية غير واضحة بالنسبة لنا وأردنا أن نتيقن من صحة هذه الخطوة قبل الموافقة.

لذلك قررنا أن نأخذ برأي أحد المعتقلين الذي كنا على معرفة به، وكنا على علم بتوجهه لمثل هذه الدورة. وبعد أيام اتصل هذا الأخ واستفسرنا عن رأيه في مسالة انخراطنا في هذا المجال، فكانت نصيحته التي أخذنا بها هي "عدم المشاركة".

لاحقاً أيقنّا صحة هذا القرار لما رأيناه من تراجع الكثير من شبابنا عن المشاركة في الحراك وابتعادهم عن مختلف الفعاليات في القرية.

مُطْمَئِنَّةً بِقَدَرِكَ

الاعتقال الثالث

كان عـام ٢٠١٥ عامـاً مليئـاً بالأحـداث والعمليـات التـي نفذناهـا في مختلـف مناطـق البحريـن ضمـن مجموعـة «ثـوار البحريـن»، لقـد كانـت هـذه المجموعـة خيـر سـتار لنـا لإخفـاء أنفسـنا عـن أعـين المخابـرات التـي أصبحـت تراقبنـا علـى الـدوام.

بـدأت الأجهـزة الأمنيـة حملـةً شرسـة علـى القـادة الميدانيـين في القـرى، وشـدّدت مـن القبضـة الأمنيـة والاعتقـالات والمداهمـات وإرهـاب الأبريـاء بشـكل واسـع بغيـة القضـاء علـى الحـراك الميدانـي في كل البـلاد، اعتقـل الكثيـر مـن رفـاقٍ درب السـيد كاظـم وإخوانـه مـن الشـباب الحركيـين وكانـت الدائـرة تضيـقٍ شـيئاً فشـيئاً، والخطـر يقتـرب أكثـر فأكثـر. كان رفـاق الـدرب يتعاهـدون دائمـاً بـأن مسـؤوليتهم هـي الاسـتمرار بالحـراك والمقاومـة ولـو تخلـى كل العالـم عنهـم، وهـو تكليفهـم الشـرعي وواجبهـم تجـاه قضيتهـم، وكانـت الرؤيـة واضحـة بـأن نهايـة هـذا الطريـق إمـا السـجن وإمـا الاغتـراب وإمـا الشـهادة، وكلهـا خيـر مـن اللّه.

أحـلامُ الشـباب في موطنـي كثيـرةٌ وعميقـة، لكنهـا سـرعانُ مـا تنقلـبُ إلـى كابـوسٍ يظهـرُ فيـه غـول الحكـم برائحتـه العفنـة التـي تُزكـم الأنـوف، أحـلامُ العملً، والـزواج، والأولاد، هـي أحلامُهـم ولكنّهـم يعلمـون بـأن الأحـلام لا تتحقّـقُ إلا بالعمـلِ والتضحيـةِ والبـذل والعطـاءِ، وبالدمـاءِ أيضـاً.

اليـوم هـو الثالـث عشـر مـن شـهر رمضـان المبـارك، وقبـل أيـام بسـيطة بـدأ السـيد كاظـم العمـل في إحـدى الشـركات المختصصـة في صناعـة الأثـاث ونقلـه. ذهـب إلـى العمـل صبيحـة هـذا اليـوم دون ان يـذوق طعـم النـوم، فهوّمـت عينـاه علـى أحـد الكراسـي في مقـر العمـل، وأخـذ منـه النـوم مأخـذه.

كانـت السـاعة قرابـة السـابعة صباحـاً، فاسـتيقظ علـى صـوتِ رنـين هاتفـه النقـال، رفعـه إلـى أذنـه:

"اقتحموا بيتنا ويبغونك، اطلع بسرعة من الشغل"

أغلـق السـيد كاظـم الهاتـف، ونهـض مصعوقـاً، مسـارعاً برجليـه علـى عتبـات السـلّم، هبـط وركـض إلـى أحـد زملائـه في العمـل وتبـادل معـه السـيارات وانطلـق بسـرعة نحـو سـيارة زميلـه، في السـيارة نظـر السـيد كاظـم إلـى هاتفـه وهـو

يستجمع أنفاسه التي أفلتت منه ما بين كرسي المحل وكرسي السيارة، كان هناك عشرات المكالمات الفائتة من أحد رفاقه، فاتصل به:

"وين أنت! كم مرة اتصل إليك». "قال رفيقه"

"كنت نايم في الشغل"

"اقتحموا بيتنا المخابرات قبل شوي، هربت أنا قبل ما يدخلون أشوه، اقتحموا بيت "فلان" قبلي"

"إنا لله، خلنا انزين نلتقي في بيت علي حسن، انا قريب منه»

في المحطة الأخيرة

كنت سهراناً مع أخواي الصغيرين وأحد أقربائي في منزلنا واتصل به والده يطلب منه سيارته لكي يذهب إلى العمل، خرج قريبي ليذهب بالسيارة لوالده وأخبرني بأنه سيعود بسيارة أخيه. فبقيت أنتظر عودته، وكنت ألهو في الهاتف فوردني اتصال منه:

الشغب برى بيتكم

ضحكت وقلت له:

تمزح؟

لمجلس منزلنا نافذة تطل مباشرة على الشارع، أبعدت الستارة قليلاً لأطل على الشارع، كانت هناك سيارة بيضاء صغيرة تقف قرب سيارة والدي، رأيت شخصاً مترجلاً ويأخذ شيئاً من الكرسي خلف السائق، وإذا به يرفع سترة صفراء مرقّمة، دقّقت النظر فرأيت آخر يرتدي السترة وبيده كاميرا للتصوير.

تسارعت نبضات قلبي بشكل كبير، التفت لأخواي وقلت لهم بأن قوات المخابرات على باب المنزل، ابقوا هنا وكأن شيء لم يكن، وإذا سألوا عني فقولوا إني لم أعد إلى المنزل منذ يوم أمس، وخرجت مسرعاً. ركضت بسرعة إلى سطح المنزل واتصلت بقريبي الذي كان يجوب بسيارته محيط المنزل، وطلبت منه أن يعطيني أماكن تواجد قوات الأمن، وأن يخبرني إذا كان بإمكاني الخروج من بيت جارنا الذي في ظهر منزلنا.

اتفقت معه بأني سأخرج من بيت جارنا مسرعاً، وعليه أن ينتظرني في أحد الشوارع لكي يخرجني خارج القرية، وفي حال لاحقتني قوات الأمن فإني لن أصعد في السيارة وسأستمر في الركض. وقفت على باب منزل الجار وأجلت بعيني يمينة ويسرة، على يميني مركبة لقوات الشغب في أول الشارع، وعلى يساري شاحنة صغيرة تابعة للمخابرات على مسافة منزل واحد. ركضت بكل ما أوتيت من قوة، منطلقاً نحو المكان الذي اتفقت عليه مع قريبي ورميت بنفسي داخل السيارة وانطلقنا مسرعين، والحمد لله لم ترني تلك القوات.

كان أول شيء فكرت فيه هو السيد كاظم، فاقتحام منزلي يعني اقتحام منزله أيضاً. اتصلت به عشرات المرات لكنه لم يكن يرد على اتصالاتي المتكررة، شعرت بالخوف فاتصلت بشقيقه الذي أخبرني بأن قوات الأمن اقتحمت منزلهم أيضاً في مدينة حمد لكن السيد كاظم لم يكن هناك. عاد لي شيء من الاطمئنان وبعد دقائق اتصل بي السيد كاظم واتفقنا على اللقاء في منزل أحد الإخوة قرب موقع عمله، وحين وصلنا إلى هناك اتفقنا على الخروج إلى منزل أحد أقربائه، فخرجنا إليه ومنه خرجنا مرة أخرى إلى منزل آخر.

جلسنا قليلاً في إحدى الغرف، وبدأنا النقاش حول خطوتنا القادمة بعد اقتحام منازلنا، وكوننا مطلوبين لدى أجهزة الأمن، فكنا نبحث الأمر بين البقاء والتخفي والعيش كمطلوبين ومطاردين داخل البلاد، أو البحث عن طريقة للخروج والهجرة من البلاد، وكلا الخيارين غربة وألم، الأولى اغتراب في الوطن، والثانية وطنٌ في اغتراب. وكان صديقنا الثالث يدعونا إلى البقاء في البحرين، وأبدى استعداداه لتوفير شقة خاصة لنا في إحدى المناطق لكي تكون مركزاً لنا للاستمرار في الحراك الميداني.

بحثنا الأمر طويلاً وبعد ساعات قررنا وضع كل الخيارات على الطاولة واختيار الأفضل منها، فاتصلنا بأحد الأشخاص للتأكد حول القضية التي اتهمنا فيها، وكان هذا الشخص لديه علاقة مع أحد الضباط في مركز شرطة دوار ١٧ بمدينة حمد، وهو المركز الرئيسي للمنطقة بأسرها، وبعد التواصل معه جاءنا بخبر أن القضية كبيرة وستكون الأحكام فيها لعشرات السنوات، وهو ما كنا نتوقعه، فقد كنّا نعلم بأن المخابرات تراقبنا منذ فترة ليست بالقصيرة لكنها كانت تنتظر تجهيز المسرحية والقضية التي تتضمن أحكاماً لعشرات السنين.

فالقضاء بلاء، وسوط ينتقم به الحكم من المطالبين بالعدالة والحقوق، تأتي القضية للقاضي معلّبة كوجبة جاهزة، بأسماء المتهمين والأحكام القاسية بحق كل واحد منهم، وإذا لم تكن الأحكام معدّة ينبري القاضي ويرمي سهم أحكام المؤبد وإسقاط الجنسية ويصرخ «اشهدوا لي عند الأمير»بمجرد أن تكون قضية سياسية.

أجرينا اتصالات مع عدد من الأصدقاء للتأكد إذا ما صدر تعميم أمني بحقنا في المنافذ البرية والجوية، وبعد التحقق أخبرنا أكثر من صديق بأنه لم يصدر تعميم ومنع سفر بحقنا حتى اللحظة. تباحثنا معاً في الأمر، وقررنا اللجوء إلى «الخيرة» لحسم الأمر، فكانت نتيجتها ممتازة، وكانت آية الخيرة تقول: (وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ) النحل / ٤١.

اتجهنا إلى أحد مكاتب السياحة، وطلبنا من الأهل تجهيز حقيبة سفر وملابس لشخصين بشكل عاجل.

دخلنا المكتب ومعنا الهويات ومبلغ من المال، جلسنا إلى الموظف:

نريد أقرب رحلة إلى إيران

بدت على وجهه ملامح الدهشة، وقال:

يوجد رحلة يوم غد

نريد اليوم

لا يوجد أي رحلة لإيران اليوم

حسناً نريد أقرب رحلة لخارج البحرين اليوم

توجد رحلة إلى الكويت بعد ٣ ساعات

احجز لشخصين

سلمناه مبلغ التذاكر وخرجنا من المكتب لاستلام الحقيبة، واتجهنا بسرعة لمطار البحرين الدولي. كانت النفوس مضطربة، ولا علم لنا بما يخبئه لنا المستقبل القريب، وكان كل واحد منا منشغل بنفسه يهيئها للبعد على عن الأهل والأحبة، الذين فارقناهم بلا وداع، فإما إلى السجن وإما إلى الغربة.

أوقفنا السيارة في مواقف المطار، واتفقنا على توزيع الحاجيات بيننا فكانت من نصيبي الهواتف، على أن يكون لدى السيد كاظم كامل الأموالٍ التي لدينا وهي حوالي ٥٠٠ دينار بحريني. وهذا التوزيع كان تحسباً لتوقيف أي منا، فلو عبر أحدنا يكون لديه القدرة على ترتيب الأمور للوصول إلَى إيران إما بالهاتف وإما بالأموال.

مشينا ناحية المطار وأمامنا تمشي الأقدار، توجهنا نحو أحد الشرطة عند بوابة الدخول لقاعة المسافرين، طلب رؤية الجوازات والتذاكر وسألنا:

- مسافرين؟

- الكويت

أعاد لنا الجوازات ومضينا نحو موظف الطيران فأدخلنا الحقيبة واستلمنا منه بطاقة صعود الطائرة، ومضينا نحو الجوازات المحطة الأخيرة قبل الصعود للطائرة، بدأت النبضات في التسارع، تقدم السيد كاظم أولاً، أخذ الموظف الجواز وبدأ يضرب الأزرار على اللوحة أمامه، لحظات وأشار لي، أعطيته الجواز، ضرب على الأزرار مجدداً، أعاد لي الجواز:

تفضل

تقدمت ونظري على السيد كاظم، الذي بدأ في الكلام مع الموظف الذي عاد ليحاول إدخال معلوماته مجدداً، لحظات وطلب منه الانتظار قليلاً، وذهب الموظف لغرفة خلف مكتبه، فيما بقي السيد كاظم واقفاً في مكانه، نظر إليّ وأشار بعينه: «امضِ» ثم أشاح بنظره عني، كانت النظرة الأخيرة.

بقيت متسمراً في مكاني وكأنّ الطير على رأسي، بدأت أقدامي ترجف ولا زالت عيني عليه، لحظات وجاء رجلين مدنيين واصطحبوه معهم، فيما بقيت واقفاً أراقبه يغيب عن عيني كشمسٍ تأفل عند الغروب.

كانَت المرةُ الأولى التي أتجرعُ فيها طعم الغُربة المُر، قبل الرحيل من الوطن، لم أكن أتخيل أن أفترق عن رفيق دربي، ولكنها إرادةُ اللّه، كانت هجرتي إلى وطن جديد، وكانت هجرتُه إلى الأسر.

محطات الأسر

اقتادني اثنين من الرجال المدنيين إلى مركز شرطة القضيبية في سيارة مدنية يرافقنا عدد من مركبات قوات الأمن. أدخلوني إلى غرفة التحقيق الصغيرة ووسط رائحة الدخان وانتشاره الكثيف بدأ المحقق طرح أسئلته عليّ:

وين تلفوناتك؟ الآيفون والبلاك بيري

كان وقع هذا الكلام كالصاعقة عليّ، فقد كان لدي هاتفين، هاتف شخصي وآخر للحراك الميداني. ورغم أني انتبهت إلى أن هذا السؤال له هدفان، الأول هو استعراض عضلاته ومعلوماته عليّ، كي أشعر بأنه يعرف كل شيء عني، والهدف الثاني هو الاستفادة من الهواتف للوصول للكثير من المعلومات حول الحراك، لكن حين وجّه المحقق سؤاله هذا تفاجأت من معرفه نوع هواتفي، وما خفّف عليّ من وقع هذه المفاجأة أني قد أعطيت هواتفي لرفيقي الذي قد نجح في عبور الحدود.

خلال لحظات فقط، عاودني ذلك الشعور حين تذكرت أني أحمل مفتاح السيارة التي توجهنا بها إلى مطار البحرين الدولي، وهي سيارة أحد الأصدقاء، فكنت متوجساً من أن ينتبهوا للمفتاح والسيارة ويزجوا بهذا الصديق في قضية أخرى.

قطع الضابط هذه الأفكار بسؤال آخر:

وين رفيقك؟

لقد اتفق معي على أن احاول السفر من المطار، وإذا سافرت سيحجز للسفر غداً

قال مستهزءاً: شلون جدي يفلتك؟ هذا صديقك اله تروح وتجي وياه!

"ويش أسوي بعد، الله كريم" قلت بنبرة المتأسف.

كنت قلقاً من انكشاف أمر صديقي الذي يسّر الله له عبور الحدود،

فأخبرت المحقق بأن هواتفي مع إحدى أخواتي، وأنها الآن في منزلنا في السهلة الشمالية.

قام الضابط بأمر أحد الشرطة بتقييد يداي بـ «الهفكري» وسارعوا بإخراجي في موكب من سيارات الشرطة إلى منزلنا، كان غالبية الموكب من المركبات المدنية التي يستقلها أفراد ممن ينتسبون لوزراة الداخلية من ضباط مدنيين.

أجلسوني في الخلف بين فردين منهم الأمن في إحدى السيارات الصغيرة. وفي الطريق إلى قرية السهلة توقفت السيارة في الإشارة الضوئية قرب منطقة البلاد القديم، وكان على يمين السيارة أحد أبناء القرية ممن أعرفه جيداً، لكنه حين رآني أشاح بنظره بسرعة وكأنه لم يرني.

أكملنا الطريق إلى أن وصلنا إلى المنزل، وانتشرت مركبات الأمن والقوات في كل الحيّ من أوله إلى آخره، وأنزلوني من السيارة، سألني الضابط:

اختك هني؟

ما أدري، لكن التلفونات مو هني!

غضب الضابط وأحمّر وجهه وانتفخت أوداجه، وسارع بالدخول بي إلى المنزل، وشرع مع عدد من القوات المرافقة له في ضربي حتى سقطت وانهالوا علّي بالركل واللكم، وأنا ساقط على الأرض أمسكت بقدم الضابط وطبعت أسناني على قدمه حتى كدت أقتلع جزء منها، فزادوا من الانتقام مني وضربي على الرأس، حتى صرت لاحقاً لا أستطيع السمع جيداً من أذني اليمنى بسبب الضرب الشديد الذي تعرضت له.

بدأو في تفتيش المنزل بشكل سريع، وكنت أخشى أن يقوموا بتفتيش الطابق الثاني حيث كنت أخبئ بعض الحاجيات التي نستخدمها في الحراك، والحمد لله فإن تركزيهم على الهواتف وغضبهم جعلهم يفتشون المنزل بشكل سطحي.

أعادوني إلى مركز شرطة القضيبية وبقيت مدة ٥ أيام في التوقيف، حيث قاموا بالتحقيق معي حول الهجوم على مركز شرطة الخميس التي يتهمونني فيه، وأنكرت أي صلة لي بالقضية. أثناء التحقيق كان

المحقّق دائماً يستعرض معلومات استخباراتية حول تحركاتي وعملي، وأذكر أنه جلب رقم هاتف إيراني -لأحد المهجرين- من سجل مكالمتي ضمن أوراق التحقيق. وقبل نقلي إلى سجن الحوض الجاف أخذوني للتوقيف في مركز شرطة الخميس أيضاً.

في سجن الحوض الجاف

بدأت علاقتي مع السيد كاظم بعد ثلاثة أو أربعة أيام من وصولي إلى سجن التوقيف في الحوض الجاف عنبر ٩، وفي نفس الغرفة التي كان معتقلاً فيها، وقد أصبح الأقرب إلى قلبي لما بدى منه من احترام كبير لم أكن أستحقه من شخص مثله. وكل ما مرّ يوم تعرفنا على بعضنا أكثر، وكل ما تعارفنا أكثر ازددنا تعلّقاً ببعضنا، إلى أن وصلنا لدرجة لا يمكن ان نأكل شيء إلا ونتقاسمه مع بعضنا قليلاً كان أو كثيراً.

لا زالت تفاصيل أول ليلة لي في هذه الزنزانة حاضرة في خيالي، وصلتُ إلى الزنزانة منهكاً من التحقيق الطويل والتعذيب الذي تعرّضت له قبل نقلي إلى السجن، وجدتُ أحد الأسرّة شاغراً فرميتُ بجسمي عليه، ولا أتذكر هل كان المعتقلون نائمين أم مستيقظين، ولكن بعد دقائق معدودة اقترب مني شاب وجلس عند رأسي.

راح الشاب يسألني عن حالي، وعائلتي ومنطقة سكني بكل أريحية وطمأنينة، وكان لهذه الأسئلة وقعها على قلبي، ففي تجاربي السابقة في الاعتقال وما أعرفه عن السجن أن أول ما يُسأل الوافد الجديد إلى زنزانة من قبل المعتقلين وخصوصاً السياسيين منهم، هو عن نوع قضيته وماهيتها. إذ كانت الإجابة على هذين السؤالين تلعبان دوراً في تحديد كيفية التعامل مع هذا الوافد الجديد. لكن هذا الشاب لم يسألني عن هذه الأمور بل راح يتحدث معي في مختلف الأمور، حتى سافر بي إلى خارج هذه القيود.

ذكرت لـه مسقط رأسي فاتضح أن أقربائه من قريتنا أيضاً، ولـه العديد من الأصدقاء إذ كان يقضي الكثير من الوقت هناك، وكان من بين أصدقائه بعض أبناء إخواني. كانت هذه المحادثة الأولى التي جمعتني بهذا الشاب وعرفت فيها اسمه.. السيد كاظم.

ربما تكون هذه الليلة وهذا الاستقبال هما السر في تطور علاقتنا وارتباطي بالسيد كاظم، فالانطباع الأول عن أي شيء لا يمكن ان يُمحى من الذاكرة.

***

في إحدى الليالي حاولت إيقاظه من النوم كي يصلي صلاة الليل كعادته، لكنه لم ينهض ومهما حاولت إيقاظه لم يقم من فراشه، وبقيت أحاول إيقاظه حتى دخل وقت صلاة الفجر فقمت إلى الصلاة، وبعد الصلاة عدت لمحاولاتي البائسة لإيقاظه حتى شرقت الشمس ولم يتحرك من سريره، فقمت غاضباً وابتعدت عنه.

استيقظ قبل صلاة الظهر وصلى الفجر مسرعاً، لكنني بقيت بقية اليوم غاضباً وأتجنب الحديث معه إلى أن حان موعد النوم. اقترب من فراشي بوجهه المكتسي حياءً وخجلاص، وبدأ يعتذر مني وقال إنه لم يستطع النوم طوال الليلة الماضية ولهذا السبب لم يكن قادراً على النهوض للصلاة، لكنّه أصّر وشدّد عليّ بأن لا أتركه نائماً أبداً في المرات القادمة حتى لو اضطر الأمر إلى أن أسكب عليه الماء البارد.

وأتذكر أنه كان للسيد كاظم مقتنيات تعتبر في السجن أثمن ما يمتلك المعتقل، السبحة والتربة الحسينية والقرآن وكتاب للشهيد دستغيب. كانت السبحة لا تفارق يده، ومن النادر أن ترى شفتيه لا تتحركان بذكر الله، حتى أثناء النقاشات في الزنزانة، وكان كتاب الشهيد دستغيب رفيقه في هذه الزنزانة، حيث كان في كل ليلة يقرأ صفحات من هذا الكتاب، ثم يفتح كتاب الله يقرأ من آياته الكريمة قبل أن ينام.

النصر بالله أتى

الشخصيات الإيجابية عملةٌ نادرةٌ في السجن، وقلما تصادف سجيناً لا يغيّر قناعاته ولا يتزلزل بعد سنوات من الاعتقال. كانت النقاشات حول الحراك والأوضاع السياسية تدور في الزنزانة بشكل دائم.

يستقي السجناء مختلف الأخبار من مصدرين، التلفزيون وبه قنوات محدودة، والمصدر الأبرز هو الاتصالات والزيارات العائلية. تنقل إحدى العوائل خبرًا عن لقاء فلان بفلان إلى ابنها المعتقل، ويقوم بدوره بنقل الخبر إلى المعتقلين في زنزانته، فتبدأ التحليلات والنقاشات، وينام الشباب بآمال وأحلام كبيرة تصعد بهم إلى أعالي السماء. ينتقل الخبر من الزنزانة إلى الزنزانة، فيقوم سجين آخر بإخبار أهله بقرب الانفراجة والإفراج عن المعتقلين، فتحلّق العوائل مع أبنائها، وما يلثبون إلا أن يسقطوا جميعاً.

كان السيد كاظم في كل هذه الدورة التي تتكرر كثيراً من القلة القليلة التي لا تسقط، فلم أسمعه يوماً يسأل عن الانفراجة أو النصر. بل كان يشدّد في الحلقات النقاشية على الأهم بالنسبة إليه ويكرر كلمة «لا تنازل». كان مؤمنًا بحقانية وعدالة قضيته ويعيش في السجن بنفس مطمئنة حرّة.

وفي ذات الأمر، كانت النقاشات حول الحراك وتفاصيله الدقيقة دائمة في الزنزانة، وفي إحدى المرات دار النقاش بين عدد من المعتقلين إلى أن قام أحدهم بالتعدي وشتم أحد علماء الدين من الرموز الوطنية وقادة المعارضة. وكان السيد كاظم حاضراً ولم يشارك في النقاش. في الليل جلس بجانبي وسأل: هل سمعت كلام فلان اليوم؟ بلى هل تعتقد أننا أهلٌ للنصر إذا كان هذا حالنا ونحن في سجن واحد؟ كيف بنا خارج السجن إذن؟ وكيف بنا عندما ننتصر؟!

أمين الصندوق

في سجن الحوض الجاف وطوال الفترة التي قضيتها مع السيد كاظم لاحظت حرصه على النظافة والتنظيم. فمثلاً من النادر أن تجد سريره

معبثراً أو خزانة ملابسه غبر مرتبة، إذ كان يحرص على ترتيب ملابسه بدقة تامة، وكان هذا الحرص يشمل الزنزانة فكان يعمل على تنظيف وكنس الغرفة بشكل يومي.

انطلاقاً من هذه الخاصية فيه، اخترنا السيد كاظم أميناً لصندوق الأموال في الزنزانة. كنا عشرة معتقلين، وكل واحد يساهم في هذا الصندوق بما يستطيع من الأموال التي تقوم عوائلنا بإدخالها، فكان هو الوحيد الذي يعرف كم يساهم كل معتقل. وكان يشدّد على كل المعتقلين أن لا يُثقلوا على عوائلهم ويؤكد «كلنا أخوة في الزنزانة والخير يكفي الجميع».

وكان هو المعني بشراء حاجيات المعتقلين من الكانتين، وكان دائماً يشتري الحاجات أكثر من حاجتنا لها، سواء من أدوات النظافة أو الملابس الداخلية وغيرها، وحين يتم جلب أي معتقل جديد يبادر بتقديم هذه الحاجيات الضرورية إليه، لحاجتهم الماسة لمثل هذه الأدوات بعد قضائهم أياماً طوال في غرف التعذيب والتحقيق.

خذوها للحراك

بعد اعتقال أي مواطن تبادر مختلف القوى المعارضة لدعمه ودعم أسرته بما يتيسر من المال، فمصاريف السجن تثقل كواهل العوائل، خاصة التي لها أكثر من معتقل، وكانت هذه الأموال تصل للعوائل بطرق مختلفة سواء عبر مندوبين أو طرق أخرى.

في هذا الصدد، تواصلت إحدى الجهات المعارضة معي، وأخبرتني بأنها أرسلت مبلغاً من المال هدية إلى السيد كاظم. كانت هذه الطريقة هي المعتمدة في الحراك الميداني، أن يتم إيصال الغرض لمكان ما ويتم إرسال صورة أو وصف لهذا الموقع إلى المستلم (بريد ميّت).

على كل حال، استلمت المبلغ، وصادف أن اتصل السيد كاظم صبيحة اليوم التالي، فأخبرته عن الهدية التي استلمتها للتو، وأني سأوصلها إلى عائلته كي يقوموا بإدخالها إليه في أقرب فرصة.

رفض رفضاً قاطعاً، وقال لي أن أخبرهم أنه ليس بحاجة إلى النقود، فإما أن يستردوها أو يوافقوا أن تُحوّل لخدمة الحراك في القرية.

لقد أدّيت

تم اعتقالي بعد شهر تقريباً من اعتقال السيد كاظم، وفي سجن الحوض الجاف وضعوني في عنبر رقم ٥ لكنني كنت ألتقي به يومياً، فعلاقتي معه سابقة للأسر، فنحن من قرية واحدة وتجمعنا علاقة وثيقة. بعد فترة تم نقلي إلى عنبر ٩ وهو العنبر الذي يتواجد في السيد كاظم ولكنه لم يكتفِ بذلك؛ بل عمل كل ما بوسعه من أجل نقلي معه إلى ذات الغرفة إلى أن نُقلت معه في نهاية المطاف.

طوال فترة اعتقاله كان صلباً وعزمه ثابتاً كالجبال، لم تهزه القيود أو تزلزله، فكان صاحب نفسٍ مطمئنة ومستبشرة، وكان يؤكد دائماً «لقد أدّيت تكليفي الشرعي».

لهذا لم يكن يخشى من الضباط والحرّاس في السجن، في إحدى الليالي دخل الضابط علينا في جولة تفتيش مفاجئة وعلى وجهه ملامح التعب والغضب، كأنه كان مجبراً على ذلك. حين أطل الضابط وقف السيد كاظم وقال له:

- صار اليي سنة طالب كتاب للحين ما دخلوه

- انفجر الضابط غضبًا وقال بلهجة حادة وصوت مرتفع:

-٦٠ سنة إن شاء الله. وخرج مسرعاً

وانفجرنا بالضحك للموقف.

في حادثة أخرى، كنا في كابينة الاتصال، وكنت أتحدث مع عائلتي عبر الهاتف فجاء أحد الشرطة وقام بقطع الاتصال بلا سبب، غضب السيد كاظم وسأل هذا الشرطي: «لماذا قمت بقطع الاتصال بهذه الطريقة، ما زال هناك لديه وقت للاتصال".

أمره الشرطي بالسكوت وقال له أن هذا الأمر لا يعنيه، لكن السيد أصر على موقفه واستمر بمحاججته، فقام الشرطي بطرده من الكابينة ومنعه من إكمال اتصالاته، وغضّ الطرف عني.

العاشقُ

كان السيد كاظم حريصاً جداً على الصلاة، وأحرص على إقامتها جماعة في الزنزانة أو في مصلى العنبر، وكان يسعى بشكل يومي لجمع الشباب لقراءة زيارة عاشوراء ودعاء كميل ليلة الجمعة، وتنظيم المناسبات الدينية في العنبر.

كنتُ من منظمي الفعاليات الدينية في العنبر، وكانت أمور الوفيات والاحتفالات ترجع لي في تنسيقها. وكان السيد كاظم بجانبي دائماً، يسأل عن ترتيب الوفاة من سيرتقي المنبر، من الرادود، أو في الاحتفالات من سيلقي كلمة، من سيلقي الشعر.. وهكذا.

كان السيد كاظم من المحافظين بشكل كبير على إحياء ذكر أهل البيت(ع) في كل فرح وحزن، يفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم، وكانت تظهر عليه أثناء الإحياء حالات من التأثر التي تعكس مدى عشقه لأهل البيت(ع).

أما على مستوى أخلاقه فلا أستطيع إلا أن أقول أن السيد كاظم كان محبوباً من جميع المعتقلين على اختلاف قضاياهم وجنسياتهم، فقد كسب الجميع بأخلاقه العالية، وأصبح حتى من يكبره سناً يحترمه كثيراً.

نذلّ أنفسنا!

كانت المحاكمات تعقد في القضية التي اتهم فيها السيد كاظم، وكان يذهب إلى هذه المحاكمات ويعود بشكل طبيعي، ولم يحدث أن عاد مرةً وهو متضايق أو حزين من جلسات المحاكمة، بل كان يخبرنا بعد كل جلسة بأنه يتوقع أن يتم الحكم عليه بالسجن إما لسبع سنوات أو عشر.

والتوجه إلى المحكمة لا يمثل إلى المعتقلين السياسيين إلا رحلة تشبه تلك الرحلات التي تنظمها المدرسة إلى محمية العرين، فالكثير من المعتقلين يذهبون إلى جلسات المحاكمة رغبة في الخروج من السجن ورؤية الشوارع والناس حتى ولو كان من خلف الزجاج المحصّن بالأشباك الحديدة.أما توقع الأحكام في القضايا السياسية فهو سهل جداً لأنها أحكام تأتي جاهزة بغض النظر عن ظروف المحاكمة والأدلة.

عند عودة السيد كاظم من إحدى جلسات محاكمته، كانت على وجهه

مسحة من الحزن والكآبة وهو أمر لم نعهده منه أبداً، فتقدمت وسألته عن حاله وعما جرى في المحاكمة، فقال بأنه بخير وأن المحاكمة مستمرة وقد يصدر الحكم في الجلسة المقبلة أو التي تليها. فقلت له بأنك تقول أنك ستحكم بعشرات السنين فلماذا هذا الحزن والقلق؟ بقي صامتاً لبعض الوقت، ثم أخبرني بأنه رأى معتقلاً سياسياً يتوسّل شرطي من أجل سيجارة! كال يقول نحن معتقلين عزّة وكرامة ونذلّ أنفسنا إلى هؤلاء؟! ولماذا؟ من أجل سيجارة!

التكافل الاجتماعي

في السجن يظهر معدن الإنسان على حقيقته، فالأيام الرتيبة المتكررة المتشابهة التي تمر على المعتقل قد تفقده النشاط وتُحيله إلى آلة صماء فاقدة للشعور. وفي السجن تزداد النزعة الفردية والميل إلى الراحة والابتعاد عن أي ما يُمكن أن يجعل الحراس يضيّقون على المعتقل.

كان معتقلو عنبرنا محرومون من الخروج للتشمّس والكانتين لشراء الحاجيات والاتصالات الأسبوعية أيضاً، وهو إجراء عقابي أنزلته إدارة السجن علينا بسبب موقف من أحد السجناء.

كان السيد كاظم في العنبر المجاور لنا ولم يكن ممن جرت عليهم العقوبة، فتكفّل بشكل عفوي بشراء حاجياتنا من الكانتين وإدخالها لنا من ثغرة تربط العنبرين رغم أن الكاميرات كانت تسجل كل شاردة وواردة، إلا أنه رغم ذلك كان المبادر دون أن نطلب منه حتى.

الروح الحرّة

غريبٌ هو التناقض الذي يمكن لك أن تعيشه في لحظة واحدة، أن تجمع بين الدمعة والبسمة، الحزن والفرحة، صراع تعيشه داخلك من المشاعر المتضاربة، هكذا هي لحظة وداع أي معتقل من أخوتنا المعتقلين بعد صدور قرار الإفراج عنه. فوداعه ليس وداع إنسان عادي بل وداع شخص ألفته وشاركته الضيق والشدّة وكنتما معاً تواجهان المحن، محنة البُعد عن الأهل، وشدّة التضييق والانتهاكات والجرائم، وآهات القيود والزنازين.

تقفُ بعد أن يجمع مقتنايته البسيطة تُقبلّه، تضُمه، وتهمسُ في أذنه

«سامحنا وأبرئ ذمتنا» ثم تتركه للرحيل إلى الحُرية التي طال انتظارُها، يخرجُ من الزنزانة تُشيّعه نظراتُك بعين دامعة وابتسامة مصطنعة، تكادُ أن تنفجر بالبُكاء لفراق أخيك، وتشتاقُ للحُرية التي ينالُها الآن، تُخرجُ رأسك تنظُر إليه إلى أن يغيب عنك ثم تعود للجلوس على سريرك المُهترئ، والصمتُ يعُم الزنزانة، فالكُل مشتاق والكُل حُر. «أرواحنا حرّة ولا يستطيعُ أحد أن يُقيّدها» هكذا يقولُ السيد كاظم.

معروف في السجن بأن العائد إلى أهله لا يحمل معه من مقتناياته إلا ما كان للذكرى، ويهدي إخوانه المعتقلين حاجياته من ملابس وغيرها ليستفيدون منها في بقية رحلة الأسر.صدر قرار بالإفراج عن أحد المعتقلين من أصدقاء السيد كاظم، فأهداه حذاءه الرياضي لما يعرفه عن التزام السيد بالرياضة بشكل دائم، والحذاء الجيد يُعتبر عملة نادرة صعبة في السجن.

بعد فترة بسيطة جاء أحد المعتقلين إلى الزنزانة وادعى ملكيته للحذاء وأن المعتقل الذي أُفرج عنه قد أهداه إياه، تبادلنا النظرات بيننا، وانتظرنا ردّ السيد كاظم لأن الكل يعلم بحقيقة الأمر، لكنه لم يجادله وقال له خذ الحذاء، وأبى التجادل والدخول في مشكلة مع هذا المعتقل بسبب حذاء.

دمثُ الأخلاق

اعتُقلت بسبب تغريدة في موقع التواصل الاجتماعي "تويتر"، أَدنت فيها جريمة إعدام الشهيد الشيخ نمر باقر النمر في المملكة العربية السعودية. وبعد أيام قضيتها في مبنى التحقيقات الجنائية والنيابة العامة تم نقلي إلى سجن الحوض الجاف، وتحديداً إلى ذات الزنزانة التي يتواجد فيها السيد كاظم.

ما إن دخلتُ إلى الزنزانة حتى استقبلني الشباب بحفاوة، وتبرع أحدهم بسريره الأرضي لي لأنه لم يكن إلا السرير العلوي شاغراً ويشقّ عليّ الصعود والنزول يومياً لكبر سني.

أمضيت معهم شهوراً جميلة ومفيدة، وكنا في الكثير من الأحيان لا نشعر بأننا معتقلين خلف القضبان بسبب الأجواء الأخوية والمحبة والمودة بيننا في الزنزانة، هذه الزنزانة التي تضم شعباً، فمنا عالم الدين، والطبيب، والإعلامي، والجامعي، ومنا الشباب المؤمن الحماسي.

كان السيد كاظم من أروع من صادفتهم في السجن، دمثُ الأخلاق وصاحب نفس متسامحة وكريمة، وابتسامة لا تفارق محياه الذي تعلوه سيماء الورع والتقوى.

قبل أذان الفجرٍ كان ينشغل بالصلاة والعبادة، ومع اقتراب وقت الصلاة كان يوقظنا جميعاً للصلاة، ويحرص على إقامة الصلاة جماعةً، وفي بعض الأحيان كان يؤمّ الشباب بنفسه في الصلاة. وكان صاحب حضور بارز في تنظيم المناسبات الإسلامية مع إخوانه المعتقلين.

لا عدالة

في يوم النطق بالحكم على السيد كاظم كان قد نُقل إلى عنبر ٨ في سجن الحوض الجاف، في ذلك اليوم لم يتم اصطحابه إلى قاعة المحكمة ولم يكن يوم الاتصال المخصص له، فطلب مني الاتصال بأهله لمعرفة الحكم.

اتصلت بعائلته وأخبروني بأن الحكم هو عشر سنوات بالسجن وغرامة مالية، كما كان يتوقع، لكنني احترتُ كيف أوصل الخبر إليه. فأشار عليّ أحد المعتقلين معنا من كبار السن بان أؤجل إخباره إلى ما بعد وجبة الغداء كي لا أفسد شهيته للطعام.

كان يفصل عنبر ٩ وعنبر ٨ سور به نافذة يمكن للمعتقلين أن يروا بعضهم عبرها ويتبادلون الحديث بأصوات مرتفعة كي يسمع كل طرف ما يقوله الطرف الآخر. التقينا به بعد الغداء وكنا أربعة أشخاص، رفعت صوتي وقلت له بأن الحكم قد صدر كما توقعت عشر سنوات، لكنه لم يسمع وأشار لي بيده عبر الزجاج يسأل عن العدد، فأشرت إليه بيدي بالرقم عشرة.

كنا مصطفين لمواساته ومساعدته ليمتص صدمة الحكم، لكنه تلقى الخبر بشكل عادي وقال الحمدلله.

سجن جو المركزي

بعد صدور الحكم بالسجن لمدة عشر سنوات، نُقل السيد كاظم إلى المباني التابعة لإدارة الإصلاح والتأهيل في سجن الحوض الجاف، وهي مباني مخصصة للسجناء دون الواحدة والعشرين عاماً، وبقي هناك حتى أتم

الواحـدة والعشـرين فتقـرر نقلـه إلـى سـجن جـو المركـزي.

قبـل ليلـة واحـدة مـن نقلـه جـاء إلـيّ شـقيقه وطلـب منـي أن أرتـب الأوضـاع كـي يصبـح السـيد كاظـم معـه في غرفـة واحـدة بمجـرد نقلـه. كنـت مسـؤول عنبـر ١ والمعنـي بترتيـب الأمـور مـع الشـرطة والضبـاط نيابـة عـن السـجناء.

كان الشـرطة مـن الـدرك الأردنـي يتحاشـون التدخـل في تفاصيـل ترتيـب الغـرف إذا لـم تكـن متعارضـة مـع الأوامـر التـي تأتيهـم، لهـذا قمـت بتنسـيق الموقـف مـع مسـؤول عنبـر ٣ كـي نجعـل المرتزقـة الأردنيـين يقومـون بزيـادة شـخص لدينـا، وإنقـاص آخـر في عنبـر ٣ كـي لا تكـون هنـاك أي شـكوك ومشـاكل عنـد قـدوم النوبـة التاليـة مـن الشـرطة أثنـاء عـدّ السـجناء اليومـي.

لـمّ شـمل الأخويـن في زنزانـة واحـدة في عنبـر ١، كان ذلـك اللقـاء الأول بينهمـا منـذ فتـرة طويلـة، دخـل السـيد كاظـم إلـى الزنزانـة وكانـت حلقـة مـن عشـرة سـجناء في انتظـاره يتوسـطهم شـقيقه، فاندفـع كل واحـد باتجـاه الآخـر وضـمّ شـقيقه إلـى صـدره، رأيـت الدمـوع ترافـق البسـمة علـى وجـه أحـد السـجناء الذيـن تأثـروا كثيـراً بهـذا المشـهد.

منـذ تلـك الليلـة لـم يفتـرق الأخويـن أبـداً، وأتذكـر أنـه في تلـك الليلـة كان يقـام تأبـين لأحـد الشـهداء فذهبـا معـاً. ومنـذ تلـك الليلـة أصبـح السـيد كاظـم ينـام علـى فـراش علـى الأرض في الزنزانـة المكتظـة، والتـي لا تحـوي إلا ٦ أسـرة.

العمل الثقافي

السيد كاظم: سمعنا أن المشاكل الأخلاقية زايدة في القرية

رفيق الدرب: إي سمعت، ولكن يبدو انها إشاعات مو صدق

السيد كاظم: إن شاء اللّه تكون اشاعات.

رفيق الدرب: القرية يبي اليها شغل ثقافي وديني

السيد كاظم: البلد كامل مو بس القرية أخي، المفترض بعض الأخوة يتطوعون لهذا المجال، لتثقيف هذا الجيل الجديد.

هكذا ومن قلبِ زنزانته وأسره، لم يكن يغفل عن متابعة شؤون القرية والشباب بشكل خاص، بل كان يتتبّع الأوضاع بشكل مستمر أكثر من اهتمامه بالأوضاع والأخبار السياسية. وفي اتصال آخر سألني عن أحد الإخوة المُفرج عنهم مؤخراً، ثم قال: هذا الأخ جيدٌ جدًا، لكنه بحاجة إلى من يدلّه على الطريق الصحيح. أتمنى أن يستفيد من تجربة الاعتقال.

وبالنسبة لي شخصياً فرغم أنه خلف القيود لكنه كان في كل اتصال يسألني: أخي مو محتاج شيء؟ أي شيء أقدر أخدمك فيه؟ ودائماً يكرّر «اعذرني على التقصير».

لأكونَ من أنصاره

في أيام السجن وتحديداً في سجن جو المركزي، كان السيد كاظم شديد الاهتمام بحالة جسده ومن المُداومين على ارتياد المساحة التي خصصت للرياضة ووضعت بها بعض الأثقال من العلب البلاستيكية المعبأة بالمياه.

أرسل لي السيد صورة له دون قميصٍ، فكان جسده مفصّلاً بسبب الرياضة وحمل الأثقال، فقلت له ممزاحاً «صاير أبو حديد أخي»، فكان ردّه «لازم نعّد أنفسنا، أيام وبإذن الله سيظهر الإمام».

ويقول أحد السجناء الذين رافقوه في رحلة الأسر، أن السيد كاظم كان حريصاً جداً على برنامجه الرياضي، فكنت أناقشه عن هذا الحرص الكبير، وكان لديه ميزة أنه لا يشرع في الرياضة إلا بعد ان يتوضأ، فسألته عن الهدف من هذا العمل فقال:

«حين أكون على وضوء أحاول أن أبني نفسي لأكون من أنصار الإمام أو أكون من الممهّدين لظهوره».

الصديق الحقيقي

الاختبارات والبلاءات تعرفُك صديقُك الحقيقي والآخر المُزيّف الذي يتخلى عنكَ عند أول مطب، السجنُ والغربةُ والملاحقة من هذه الاختبارات التي يَميزُ فيها الحَبُّ الجيد من الحب الرديء.

اختار اللّه للسيد كاظم اختبار وبلاء السجن، لكنه كان ينظر بإيجابية إلى هذا الامتحان الإلهي، فطريقُ الجهادِ في سبيل اللّه مليئٌ بالشوك والأذى.

كنت أتحدث معه حول بعض الأصدقاء والرفاق فقال «الحمد للّه على هذه الامتحانات الحلوة، فهي تعرّفنا الأصدقاء والإخوان الحقيقيين».

مع العلماء

إنّي أتذكره جيِّداً، في أوائل دخولي سجن جو المركزي، حيث كان يبعث إليَّ رسائل صامتة من خلال نظراته المليئة بالحبّ والتقدير، وكانت أولى اللقاءات بعد شهر من وصولي إلى سجن جو، وذلك في عشرة محرم الحرام، حيث جمعني به الإمام الحسين(ع) في مأتمه، إذ أنّي وُفّقتُ في ذلك العام لصعود المنبر الشريف في عنبرهم (عنبر١) في عشرة محرم ١٤٣٨هـ، وكان -رَحمه اللّه تعالى- مواظباً على الحضور إلى تلك المجالس مبكِّراً، وأتذكّر جيداً أنَّه كان يجلس في مكانٍ خاصٍّ أمام الخطيب عادةً جلسة التلميذ المهذّب، ويظهر عليه التأثُّر والتفاعل مع النعي بالبكاء، وكذلك يبدي اهتماماً واضحاً مع البحث بالانتباه والالتفات ثم السؤال والاستفهام.

ازدادت العلاقة بيني وبينه وتقوّت أكثر بعد تلك الفترة، حيث كنتُ أذهب لإلقاء بعض الدروس العقائدية في عنبرهم وكان من الحضور الأساسيين.

ثم تعمّقت العلاقة أكثر بعد نقله إلى عنبرنا (عنبر٣) فكان يحدّثني ويلقي عليّ التحايا باستمرار وذلك عبر هوّة الباب، حيث تقابل زنزانته زنزانتنا، وكان يبعث بالأسئلة والرسائل الكتبية أو الشفهية، بالإضافة إلى أنّي كنتُ أتسلل لزيارتهم في زنزانتهم، وأنام فيها لعدة أيام، أؤمّ الجماعة وألقي الدروس والمسائل.

كان ما يميّز المواقف معه في الأجواء العامة هي أخلاقه العالية، وأذكر أني حين كنت أدخل إلى الزنزانة كان يقوم ليفسح لي المكان للجلوس، إضافة إلى أدبه الجمّ الذي يضفي به على مَن حوله، وحالة الصمود والثبات والعزة التي كان يعيشها تجاه الواقع السلبي الذي كنّا فيه داخل السجن.

أما على المستوى الخاص فما لاحظته أنه عندما كنتُ أزورهم في زنزانتهم، مواظبته على المستحبات فضلاً عن الواجبات، كاهتمامه بصلاة الجماعة وصلاة الليل، واهتمامه بالتعلُّم والاستفادة خصوصاً فيما يتعلَّق بالمسائل الفقهية. وأتذكر أنَّه سألني يوماً، هل يجوز ردّ السلام على الشرطة الذي يدخلون علينا للحساب أو ما شابه؟!

إضراب "لبيك يا حسين"

استذ التضييق على السجناء السياسيين بشكل رهيب، وأصبحت الأجواء خانقة، يكاد المرأ ينفجر منها، داهم عناصر الأمن جميع الزنازين في كل المباني وصادروا كل شيء، الكتب والروايات وكتب الأدعية، مُنعنا من الخروج إلى الفنس أو الخروج من الغرفة إلا لفترة بسيطة جداً، وحظروا علينا إقامة الشعائر الدينية.

مع اقتراب شهر محرم الحرام قمنا بالتواصل مع إدارة السجن بشأن إحياء ذكرى عاشوراء الإمام الحسين، لكن الإدارة كانت تدير ظهرها لمطالبنا وتعطي وعوداً فارغة. ما دفع السجناء لاتخاذ قرار في الدخول في إضراب عن الطعام تحت مسمى «لبيك يا حسين».

تفاعل جميع السجناء مع الإضراب بشكل رهيب، وكان من بينهم السيد كاظم، إذ كانت له بصمة واضحة في المشاركة والتحشيد منذ بداية الإضراب وحتى نهايته، فكان يقول: هذا من ألذ الإضرابات التي شاركت في السجن... لنستمر في الإضراب.

بدأت أول أيام الإضراب، وبدأت الإدارة بالضغط على المضربين لفك الإضراب، تارةً بالترغيب والوعود الفضفاضة بالاستجابة لمطالبنا، وتارةً أخرى بالتهديد والوعيد بالقمع والحبس الانفرادي، حتى يئسوا من فكّ الإضراب واتخذوا أسلوباً آخر للضغط على المضربين.

في كربلاء منع جيش يزيد الماء عن معسكر الحسين وأهله(عليهم السلام)، والقوم أبناء القوم، ففي سجن جو المركزي منعت إدارة السجن الماء عن مُحبي الحسين(ع)، استلهم المعتقلين صبرهم وثباتهم من إمامهم واستمر الإضراب لمدة ١٠ أيام، إلى أن اضطر بعض الأخوة تحت وطأة العطش لفكّ الإضراب في بعض المباني، مما أجبر السجناء في مبنى ٤ وبالخصوص العنبر الذي يتواجد به السيد كاظم على فكّ الإضراب

مع بقية المباني من أجل الحفاظ على وحدة الموقف، رغم مرارة الأمر في نفوسنا. فُكّ الاضراب بعد نجاحنا في الحصول على بعض مطالبنا كالسماح لنا بالإحياء في الغرف وتنقل الرواديد والخطباء بين الغرف.

****

مع النجاح في الحصول على بعض مطالبنا من الإضراب بدأ إحياء موسم عاشوراء، وتحولّت كل زنزانة إلى مأتم وكل المعتقلين إلى خدام للإمام الحسين(ع).

أكياس القمامة السوداء تتحوّل إلى سواد ينشر في كُل الغرفة، والمحظوظ من كان في غرفته خطّاط أو رسّام، يحوّل الجدار إلى لوحة فنية أو مخطوطة كربلائية. المنبر فوق السرير، يقرأ الشيخ الفلاني، ويتبعه إقامة العزاء واللطم.

في إحدى الليالي ألقى الرادود قصيدةً طرح فيها الشأن السياسي ورفض الذلّ، اشتعل الشباب حماساً، فأطلق السيد كاظم الهتاف الذي سمعه في قلوبهم: «تبّت يدا أبي لهب» أجابه أخوانه بحماسةٍ كربلائية «شُلت يداك يا حمد».

لا زيارات عائلية

الغربة ليست في فراق الوطن والأرض، الغربةُ فراق الأهل والأحبة، والغربة الأقسى حين تكونُ أنت من يختار هذا الفراق بملءِ إرادتِك.

وضعت إدارة السجن بروتوكولاً جديداً للزيارات العائلية، الزيارةُ من خلف الحواجز، تحت أنظار كاميرات المراقبة، لا عناق مع الأحبة ولا خصوصية للمعتقلين، بل وحتى الصوت لا يخترق هذه الحواجز جيداً. أيّ لوعةٍ في هذا اللقاء؟

قرّرنا الدخول في إضراب شامل عن الخروج للزيارات العائلية اعتراضاً على هذه الإجراءات الظالمة والتعسفية. كان السيد كاظم من أوائل الذين

اتخذوا موقفاً بعدم الخروج إلى الزيارة ما دام هذا الوضع قائماً.

بعد عدّة أشهر، فكّ عدد ليس بقليل من المعتقلين الإضراب وخرجوا إلى الزيارات خلف الحواجز. تُحدّثُنا النفسُ بالانهزام، وبفكّ الإضراب، فما أحلى لقاء الأحبة والأهل. كم اشتقتُ إلى حضن أمي ونظراتها الحانية، وحتى دموعها التي تنهمرُ حين يأتي أحد اللعناء صارخاً «انتهت الزيارة».

سنةٌ وبضعةُ أشهر بقي فيها السيد كاظم ثابتاً على موقفه، مُجاهداً نفسه، متحملاً فراق الأهل، لم يخرج في الزيارة، وكان أول لقاء له بهم وهو على فراش المرض.

بوادر المرض

الأيام في السجن هي يوم واحد، تنام في أول الليل لتستيقظ في آخره لأداء صلاة الليل والعبادة حتى موعد صلاة الفجر وتنام قليلاً بانتظار وجبة الإفطار، الرياضة، القراءة، الحديث مع الرفاق، التفكير، النوم، ليبدأ اليوم التالي، وهكذا دواليك.

منذ نقله معنا إلى غرفة واحدة، كانت أُذُن السيد كاظم تنزف دائم ويخرج منه الأوساخ بشكل دائم ورغم مطالبتنا الحثيثة لإدارة السجن والحراس في العنبر لنقله إلى العيادة إلا أنهم كانوا يرفضون ذلك. سبب هذا النزيف كان يعود لأول اعتقاله بعد هجوم الضباط عليه في وسط منزلهم.

مع نجاح عملية الهروب الكبيرة التي قام بها الشهيد رضا الغسرة ورفاقه؛ شدّدت إدارة السجن الخناق على المعتقلين السياسيين، قامت الإدارة بنقل السيد كاظم إلى عنبر ٣، وهناك كان يعاني الأمرّين بسبب آلام أذنه. بعد ٣ أشهر نجحنا في الاحتيال على الحراس لإعادته إلى غرفتنا في عنبر ٤ ليجتمع شمل الأخوين مجدداً.

بعد الكثير من المعاناة والسعي نجحنا في نقله إلى عيادة السجن، وبعد الفحوصات اللازمة وصف له الطبيب دواءً لأذنه، وبعد فترة من استخدامه توقف نزيف الدم والأوساخ من أذنه.

مرّ أسبوع تقريباً وتفاجئنا في أحد الأيام من ظهور انتفاخ ضخم في أنف السيد كاظم، ومعاناته من دوار في الرأس، فأرجعنا السبب إلى أنه قد يكون اصطدم بالسلّم المؤدي للسرير العلوي. تزامن هذا الأمر مع شهري رجب وشعبان حيث كان يقضي هذه الأشهر المباركة في الصيام والعبادة.

بعدها بدأ ضعف في نظره قليلاً، فأرجعنا السبب إلى كثرة قراءته للكتب القرآن والأدعية التي لم يكن يفارقها طوال اليوم، وقام شقيقه السيد هاشم بإعطائه قرآنًا أكبر ليقرأ فيه. كانت علامات الإرهاق والإجهاد تظهر على ملامحه، فطلبنا منه أن يتوقف عن الصيام.

خلال هذه الأيام قام شرطة السجن بإجراء تفتيش في كل العنابر، وكانوا يصادرون فيه الكتب وحاجيات المعتقلين وحتى الثياب، إذ كانوا يلزمون كل شخص ببدلتين فقط. دخل شرطي إلى غرفتنا طالباً منا الخروج إلى صالة الطعام، كان السيد كاظم ملقى على فراشه لا يستطيع الحراك، فطلبنا منه أن يُبقوه داخل الزنزانة لكنه رفض، فقام أخوه بإسناده على كتفه ووضعنا عليه فراشاً واتجهنا إلى الصالة.

حين وقع نظر مسؤول التفتيش على السيد كاظم:

-شفيه هذا؟ من ضاربنه على خشمه؟

- خشمه منتفخ، والشرطة مو راضين يودونه العيادة.

أصدر أوامره بنقله مباشرة إلى العيادة، وهناك وصفوا له بعض المسكنات التي كانت فعالة في تخفيف انتفاخ أنفه.

ملامحه متغيرة

"أنت لا تأمن أن يدهمكَ الشرطةُ

حتى في المنام

ربُما تشخرُ

أو تعطسُ

أو تنوي القيام

فدع المصباحَ مشبوباً

لكي تدرأ عنكَ الاتهام

يا صديقي

كل فعلٍ في الظلام

هو تخطيطٌ لإسقاطِ النظام"

اعتقلت للمرة الرابعة لسبب لا أتذكره لكثرة الاعتقالات التي تعرضت لها. وبعد صدور الحكم تم نقلي إلى سجن جو المركزي، مبنى ٤ عنبر ٤. كانت لديّ مواعيد دورية في عيادة السجن التي لا تقدم ولا تؤخر سوى في إعطاء المسكنات.

وفي أحد هذه المواعيد رأيت شخصاً في العيادة من بعيد وأحسست أني أعرفه، حقّقت النظر فلم أتعرف عليه، ولاحظت أن الشرطي كان يقوده من يده وكأنه ضرير.

حين عدت إلى العنبر رحت أسال كل معتقل أصادفه عن من قد يكون هذا الشاب في العيادة، فقالوا لي بأنه قد يكون السيد كاظم السهلاوي، كان وقع هذا الاسم صاعقاً، فملامحه قد تغيرت بشكل كبير، وجسده مختلف تماماً عما عهدته عليه حين كنا معاً في سجن الحوض الجاف قبل سنوات!

أنا اخسر أخي

بدأ السيد كاظم يشعر بآلام شديدة في الرأس، وكانت حالته الصحية تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، وكان الشرطة يرفضون أخذه إلى عيادة السجن، إلى أن استجابوا بعد فترة طويلة.

"كانوا يأخذوني إلى العيادة، وهناك الدكتور السوداني كان لا يفحصني بشكل جيد، فقط ينظر ويعطيني "بندول" ويقول: هذا يمثّل، لا يعاني من شيء، ويرجعوني إلى الزنزانة» يقول السيد كاظم.

تكـرّر هـذا الأمـر عـدّة مـرات، فكانـوا يأخـذون السـيد كاظـم إلـى العيـادة لسـاعات ويعيدونـه دون تقـديم أي عـلاج إليـه أو معرفـة مـا يعانـي منـه.

صـارت صحتـه تتدهـور بشـكل متسـارع، وكان ألـم الـرأس يجعلـه يتقـيء كل مـا يأكلـه ففقـد ثلـث وزنـه في فتـرة بسـيطة جداً، وأصبـح طريـح الفـراش لا يسـتطيع التحـرك أو القيـام بـأي شـيء لوحـده. آلام في المعـدة، في الظهـر، في الـرأس، في العـين حتـى ضعـف نظـره بشـكل رهيـب، لدرجـة أصبـح لا يسـتطيع الرؤيـة بوضـوح فيهـا.

يقـول السـيد كاظـم: «في تلـك الفتـرة كان شـقيقي السـيد هاشـم يقـوم بـكل مـا بوسـعه لمسـاعدتي، وحـين فقـدت القـدرة علـى الحركـة، قـام بصنـع كـرة مـن اسـفنج السـرير لكـي أمـرن يـدي بهـا».

شـمعةُ الشـاب كانـت تحتـرق خلـف القضبـان، وكان أخـوه بجنبـه، يصـرخ بقلبـه المتوجـع، يعـزّ علـى أخيـك أن تناديـه فـلا يجيبـك، أو يجيبـك فـلا يُغنـي عنـك شـيئاً.

تواصـل أخـوه معـي في تلـك الأيـام العصيبـة، كنـا نعمـل علـى التواصـل مـع مختلـف القنـوات الإعلاميـة والحقوقيـة لنشـر مظلوميـة السـيد كاظـم بغيـة الضغـط علـى إدارة السـجن للإسـراع في علاجـه قبـل فـوات الأوان.

بعـد يومـين عـاد للتواصـل معـي مجـدداً، وكان يطالـب بالمزيـد مـن التحـرك والضغـط لأن الوضـع الصحـي للسـيد كاظـم لا يحتمـل التأخيـر، كتـب لـي بالحـرف الواحـد «أنـا أخسـر أخويـي، ضـروري تتحركـون».

بعـد أكثـر مـن شـهرين مـن المماطلـة والتدهـور الكبيـر في صحـة السـيد كاظـم، حتـى تحـوّل إلـى جثـة هامـدة، وفي ظـل مسـاعي السـجان ودفـع الرشـاوى لبعـض الضبـاط إضافـة لتحـركات العائلـة، قامـت إدارة السـجن بنقلـه إلـى المسشـفى العسـكري بشـكل عاجـل، وبعـد إجـراء الفحوصـات اللازمـة، اسـتدعت إدراة المستشـفى والـده بشـكل مسـتعجل للتوقيـع علـى الموافقـة علـى إجـراء عمليـة جراحيـة عاجلـة لـه بعـد اكتشـاف ورم في رأسـه.

بعـد إجـراء العمليـة، كانـت قـوات النظـام تحاصـر الغرفـة التـي وضـع فيهـا الشـهيد وتمنـع الجميـع مـن زيارتـه عـدا والديـه. صـدر التقريـر الطبـي الـذي

أكد أن الورم الذي يُعاني منه السيد كاظم هو ورم خبيث، سارع النظام إلى التبرّء من جريمته وأصدر قراراً بإخلاء سبيله، وُضعت الورقة في الخزانة مع بعض حاجيات السيد كاظم، وانتهى الحصار الأمني على الجريح.

مُشْتاقَةً اِلى فَرْحَةِ لِقآئِكَ

الإفراج

يستيقظ الحنين للغائبين قبل أن أنهض من فراشي، الحياةُ واقفةٌ في محطة انتظارهم، أنتظرهم بشوق، وبلهفة الأمّ الحانية على أبنائها. سنة مرّت ولم أرَ الواحد منهم، كم هم عنيدين، لم لا يخرجون إلى الزيارة؟! لن أنتظر إجابة، فأنا من أرضعتهم العزّة والعناد في الحقّ. كونوا عزيزين يا ابنايَ فالحياةُ في الذُل عينُ الممات.

انتظرتُ ابنايَ الغائبين طويلاً، الأول منذ ٦ سنوات مضين، أما السيد كاظم فيكادُ يكمل السنة الرابعة في السجن. وردنا اتصال من المستشفى العسكري يطلب حضورنا بسرعة، فهرعنا على عجل، كانت الأفكار تتضارب في عقلي.. هل مات ابني؟ ما الذي جرى عليه؟! وبدأت أتوسل وأدعو اللّه بقلبي المتألّم.. إلهي يا من رددت يوسف إلى يعقوب، ردّ ابني السيد كاظم سالماً إليّ. ويح قلبي أيعود كالأكبر، ثم يمضي مسرعاً؟!

حين وصلنا شرح الطبيب لوالد السيد كاظم وضعه الطبي، وحاجته إلى إجراء عملية جراحية بشكل طارئ ولكن لا يمكن إجراؤها إلا بموافقة ولي أمره، فوّقع الوالد الأوراق وأدخلوه إلى غرفة العمليات.

أخرجوه من غرفة العمليات ووضعوه في غرفة الانعاش، ومنعنا الأطباء من دخول عليه حتى يستعيد وعيه. بقيت خارج الغرفة وعلى وجهي ترتسِمُ صورةُ الصراع الذي يحتدم في داخلي، بين الفرحة والحزن، بين البسمة والدمعة. أأفرحَ بأني سأرى كاظماً بعد أكثر لأول مرةّ منذ عام كامل؟ أأبكي لأنه مسجى الآن في غرفة العمليات؟!

سمحوا لي بالدخول مع والده فقط، فيما كانت عناصر الشرطة تقف على باب الغرفة، لكن رؤيته بهذه الحال لم تكن في الحسبان...لا يتحرك، لا يُبصر، لا يركّز، أخذ السجنُ منه كل المحَاسِن، جسده نحيل، وأياديه كالأعواد، أما رأسه فمغطى بقطع الضمادات، أخَذ السجن منه كل المحاسِن... إلا اثنتين: ابتسامته وصبره.

بعد أن شخّص الأطباء أن الورم الذي يعاني منه السيد كاظم ورماً خبيثاً، اختفى عناصر الشرطة بشكل مفاجئ في اليوم الثاني، ووضعوا ورقة الإفراج عن السيد كاظم في خزانته مع بعض ملابسه وحاجياته وفرّوا هاربين.

صابراً محستباً

رغم مرضه الخطير إلا أنه كان صابراً محستباً، يتحمل وجع الألم ويبلسمُ جرحنا بابتسامته ولهفته إلى أصواتنا، نعم أصواتنا فهو لم يعد يرانا. كنت أتأمل وأنتظرُ خروجه من السجن لنستقبله بالورود والزغاريد، لم يكن على البال أبداً أني سأراه في هذا المنظر، ممدداً على فراش المرض، نحيل الجسد، والمرضُ قد أكل منهُ ما أكل.

مرّت أكثر من سنة دون أن نراه ويرانا، لكنّي رأيت أنه ليس كاظم الذي أعرفه، حتى روحه تغيّرت وازدادت يقينًا وأصبح أكثر تمسكاً بالله سبحانه وتعالى، يردّد دائماً: «الحمد لله أنا بصحة وعافية» فكانت ابتسامتهُ البشوشة كرسالة سلام لقلبي.

كان خبر الإفراج فرحةً مغصوصة وتعصر القلب، تمنيتُ أن يعيدوه إلى السجن ليقضي ما تبقى من حكمه وهو بصحة وعافية، ولا أن يتم الإفراج عنه وهو بهذه الحالة. لقد كان فراشُ المرض هو المكان الثاني الذي حُكم عليه بعد السجن بقضاء بقية المحكومية.

على الفراشِ الأبيض

كنّا نزوره بشكل يومي في المستشفى، وكان لسانه لاهجاً بذكر الله، يسبّح ويحمد ويُهلّل، ورغم أنه طريح الفراش إلا أنه كان يصّر على أداء الصلاة بانضباط وأدب وبؤديها في أوقاتها.

أخبرني أحد الاخوة المعتقلين قصته مع السيد كاظم في أيام مرضه:

"كنت أتصل بالسيد كاظم بشكل دائم بعد الإفراج عنه، وكانت أوقات وأيام اتصالي معروفة بحسب الجدول الذي تضعه إدراة السجن للمعتقلين، وبدوره كان السيد ينتظر الاتصال ولم يعتذر لي ليغلق المكالمة أبداً، رغم توافد الناس لزيارته.

مـرةٌ يتيمـة اتصلـت بـه ولـم يـرد علـى اتصالـي، بـل أجابنـي أحـد الأقـارب المتواجدبن فسـألته عـن السـيد، أخبرنـي أنـه يصلـي، وأنـه كان ينتظـر الاتصـال منـذ الصبـاح لكننـي تأخـرت. حـين أنهـى فريضـة الظهـر أخـذ الهاتـف علـى عُجالـة، سلّم وسـأل عـن أحوالـي ثم اعتـذر مسـرعاً: "أخـي سـوف أتـركك لأكمـل صلاتـي.. أعذرنـي".

بهـذه الصـورة كان يحافـظ علـى الصـلاة، وإذا ازداد ألمـه، طلـب منـا أن نُسـمعه سـورة يـس، وكان لسـانه يلهـج بتردِيـد آيـات السـورة بطمـأنينـة وراحـة، ولـم ينقطـع عـن زيـارة الحسـين(ع) وكان قلبـه يتقطّـع شـوقاً لزيـارة حبيبـه في كربلائـه.

بداية العلاج

بعـد أيـام مـن الإفـراج عـن السـيد كاظـم، سـارعت أسـرته للبحـث عـن العـلاج المناسـب لـه في مختلـف بقـاع الأرض، وانحصـرت الخيـارت بـين تركيـا والولايـات المتحـدة الأمريكيـة فاخترنـا الثانيـة كـون العـلاج هنـاك أكثـر تقدمـاً، لكنـه كان مكلفـاً جـدًا وفـوق قـدرة الأسـرة علـى دفـع تكاليـف السـفر والعـلاج.

تواصلـت الأسـرة مـع الجمعيـات الخيريـة، وواقفـت جمعيتـي مدينـة حمـد والسـهلة علـى التعـاون لجمـع المبلـغ الـلازم لعـلاج السـيد كاظـم. بـدأت الحملـة ولـم تسـتمر كثيـراً، ثلاثـة أيـام كانـت كافيـة لجمـع المبلـغ الضخـم المطلـوب، ثلاثـة أيـام كانـت لوحـةً مـن العطـاءً والبـذل، كانـت الأم التـي لا تجـد مـا تقدمـه مـن المـال تُرسـل بعـض حليّهـا مـن الذهـب والفضـة للمسـاهمة في عـلاج الجريـح.

قبـل سـفره إلـى العـلاج وبعـد عودتـه كان شـعب البحريـن متعاطفـاً لأقصـى الحـدود مـع السـيد كاظـم، الشـعب الـذي لـم يكلّ أو يملّ مـن زيارتـه، سـواء في المستشـفى أو في المنـزل، كانـت النـاس تتقاطـر مـن مختلـف الأماكـن والطبقـات الاجتماعيـة، العلمـاء، الحقوقيـين، السياسـيين، وشـعب البحريـن بأكلمـه، كانـت تلـك الزيـارات تلعـبُ دوراً كبيـراً في صراعـه مـع المـرض.

رحلة العلاج

كان السفر عن طريقٍ مطارِ البحرين الدولي، أتذكر عند وصولنا إلى مطار واشنطن تلقينا اتصالاً هاتفياً من المستشفى يفيد بتأجيل موعد السيد كاظم مع الطبيب بسبب إعصار قادم إلى ولاية فيرجينيا حيث يقع المستشفى، فكان الخيار أما البقاء في واشنطن أو الذهاب إلى فيرجينا، فكان قد رأي السيد كاظم أن نتوجه إلى فيرجينا وننتظر هناك وإذا وصل أي أخبر عند اقتراب الإعصار نقوم بالسفر إلى ولايةٍ أخرى حيث من الممكن الإعصار أن ينتقل إلى أي مدينة. أتذكر جيداً بأنه قال لي حينها: «إن الإعصار آيةٌ من آيات الله و جندي من جنوده فإذا كنا نخاف من الإعصار فلنخف من الله ونلجأ اليه وندعوه فإنه قريب يستجب دعوة الداعي إذا دعاه ونتوسل بمحمد و آل محمد».

وبعد أيام وقبل الموعد المحدّد أفادت وكالة الأنباء الأمريكية بقيام الإعصار بتغيير مساره قبل وصوله إلى ولاية فيرجينيا. بعدها بدأنا رحلة العلاج وتم أخذ الأشعة وعمل كافة التحضيرات اللازمة للعلاج.

خلال هذه الفترة كان يستيقظ من النوم باكراً يصلي صلاة الفجر ونذهب بعد ذلك لتناول وجبة الإفطار، وبعدها يقوم بممارسة الرياضة حسب طاقته وقدرته، وكنا بعدها نستعد للذهاب للمستشفى لأخذ الجلسة العلاجية بشكل يومي عدا يومي الإجازة. كان السيد كاظم يقضي معظم يومه بالاستماع إلى الأدعية أو العزاء، و في خضم انشغالنا بجلسات العلاج أتذكر بأنه ذكّرنا باقتراب شهر محرم الحرام، وكان يسأل إذا كانت توجد حسينية قريبة كي يحضر مجلس أبا عبدالله الحسين(ع).

كانت أقرب حسينية على بعد ٨ ساعات ذهاباً وإياباً في واشنطن، ممّا يشكل صعوبة وإرهاق عليه نظراً لوضعه الصحي فكان يُحيي أيام عاشوراء من خلال الاستماع إلى البث المباشر بشكل يومي، إلا أنه في أيام العشرة الأخيرة أصرّ على حضور المجالس الحسينية رغم بُعد المسافة والجلسات العلاجية الإشعاعية التي كان يأخذها بشكل يومي، فكان حريص على إحياء المجالس الحسينية وكان لا يكتفي بحضور المجلس الحسيني بل المشاركة في عزاء اللطم أيضاً.

كان السيد كاظم طوال هذه الرحلة يسأل كثيراً عن الأهل والأصدقاء، وكان يطلب مني دائماً بأن أخبر والدته وأصدقائه المقربين بتطور حالته الصحية، وأن أطمئنهم بأنه بخير. كان كثير الاتصال والاطمئنان على أهله وأصدقائه، وأتذكر بأنه ورد إليه اتصال من أحد أصدقائه يخبره بوفاة زوج أخته بسبب ورم سرطاني وكان في سن الشباب، كنا قلقين بأن هذا الخبر قد يؤثر على حالته النفسية خصوصاً بأنه يعاني من ذات المرض، وتفاجئنا حينها بأنه كان محتسباً ومفوضاً أمره لله راضياً بقضائه وقدره، وكان كل ما يفكر فيه حالة أخته وأبنائها بعد وفاة والدهم، ولهذا أصبح يسأل بدرجة أكبر عنها وإذا ما كانت بحاجة إلى شيء، فقد كان بلسماً لآلام الآخرين رغم المرض.

العودة الأولى

بعد علاج استمر لشهرين تقريباً عاد السيد كاظم إلى البحرين، وقد استعاد شيئاً من صحته. أصبح قادراً على المشي والجلوس رغم أن ذلك كان يرهقه بشكل كبير. عند عودته كان رغم المرض حريصاً على الحضور في مختلف الفعاليات الاجتماعية في القرية.

في شهر رمضان كان لا يهدأ وكأنه صحيح البدن، ينتقل من منزل إلى منزل يشارك في مجالس القرآن مقرءاً أحياناً ومستمعاً في الغالب. كانت لنا جلسة شبابية بعد المجلس الحسيني في القرية فكان من رواد هذه الجلسة الشبابية التي تتحدث في مختلف الأمور الدينية والعقائدية والقرآنية.

لا زلت أتذكره في أحد المجالس حين أصررنا عليه أن يشاركنا ولو بقراءة سورة قصيرة من القرآن الكريم، وأعطيناه مكبّر الصوت وبدأ بقراءة آية الكرسي حتى أتمّها.

وحافظ على حضوره في المسجد، ولا تزال إحدى صوره في ليلة القدر محفورة في مخيلتي إذ كانت تعبر عن انقطاعه إلى الله سبحانه وتعالى.

إلى ضامن الجنان

بعد فترة، بدأت صحة السيد كاظم في التدهور، وكانت أسرته على اطلاع عن تقدم العلاج في مدينة شيراز في الجمهورية الإسلامية في إيران، وكانت رغبة السيد كاظم وأمنيته هي زيارة الإمام الرضا(ع) وأخته السيدة فاطمة المعصومة(ع).

توجهوا إلى مدينة شيراز وبقوا هناك قرابة ١٠ أيام، خضع فيها السيد كاظم لمختلف الفحوصات والإجراءات الطبية، وبانتظار نتائج الفحوصات تقرّر أن يذهبوا إلى مدينة قم ومن ثم إلى مشهد. كان مرافقوه في الرحلة لا يريدون إخباره بنتائج الفحوصات بشكل مباشر إذ كانت غير مبشّرة، ولهذا كان كل شخص يحاول أن يضعه في أجواء تلك النتائج بطريقته.

خلال هذه الزيارة بقيَ السيد كاظم في منزل أحد الأصدقاء في مدينة مشهد، كانت روحه المرحة هي الظاهرة أمام القاطنين معهم، فكان يمازحهم ويمازحونه. كان يحب شرب الشاي كثيراً فيطلب من الشباب أن يسكبوا له الكوب بعد الآخر وحين يسأل صاحب المنزل عن الشاي كان السيد كاظم يلقي اللوم على الشاب ويقول أنه لا يتوقف عن شرب الشاي.

لكن هذا الروح المرحة كانت تخفي الآلام التي تعصف بجسده، فكان يطلب من المقربين إليه أن يقوموا بتدليك عضلاته، وإذا أراد التنقل كان يحتاج إلى من يسنده، كان جسدهُ مرهق ومتعب.

لقاء

قبل أربع سنوات، افترقتُ عن السيد كاظم في مطار البحرين الدولي، واليوم موعد لقائي به بعد أربع سنوات من الفراق، كان اللقاءُ بعد عودتهم من شيراز، حيث أعطى الطبيب رأيه بأن ما تبقى من أيام السيد كاظم في هذه الدنيا بات قليلاً جداً، وأن المرض قد تفشى في أنحاء جسده.

على السلّم، إلى مجلس المنزل، كانت دقات قلبي تتسارع مع كل عتبة، وصلتُ إلى الباب المجلس، كان السيد كاظم يجلس هادئاً في الزاوية، عيناه غائرتين، تفتشان في كُل مكان، ولا ترى. تقدمتُ إليه، تعانقنا، كانت العبرةُ

تخنقني رغم تصنعي الابتسامة، راح يستشعر وجهي وشعر رأسي. نظرتُ إليه، لقد تغيّر كثيراً!

كان اللقاءُ بوزن السنين الأربع، وامتد بنا إلى منتصف الليل استرجعنا فيه ذكريات السنين الأربع، ماذا حصل بعد اعتقاله عليه وعليّ. حكى لي قصة تحايله على القوات المدنية التي سألته عني، وكيف انتصر عليهم ونجح في تضليلهم ريثما تحلقُ الطائرة بي بعيداً.

قبل ذلك الحديث، كنتُ أظن أننا أصدقاء فقط، لكن اليوم أدركتُ أن مفردة الصداقة بيننا ليست كافية، إنّها الأخوّة الإيمانيةُ بحقّ، أخوّة الإيثار والبذل والجهاد من جانبه على الأقل.

لم تتوقف زياراتي إليه على مدى أسبوع، في أحد الأيام كان النقاش محتدماً بينه وبين مرافقه، كان السيد كاظم مصرّاً على زيارة الإمام الحسين(ع) بعد زيارة الإمام الرضا(ع)، والخروج من مشهد إلى كربلاء، وكانت أيام محرم الحرام تطرق الأبواب. كانت حالته الصحية لا تسمح بالسفر، فأصررنا عليه بالعودة إلى البحرين، على أن تؤجل الزيارة إلى العام المقبل أو زيارة الأربعين بمجرد أن تتحسّن حالته الصحية.

خلال هذا الأسبوع كان يسألني يومياً عن أحد الأصدقاء ممن كانوا في الصف الأول في الحراك في القرية، استغربتُ سؤاله المتكرر فتواصلتُ مع هذا الأخ وأخبرته عن سؤال السيد كاظم اليومي عنه، فكانت الصدمة بأن الرجل لم يزر السيد منذ الإفراج عنه، متذرعاً بأنه لا يستطيعُ رؤيته على هذه الحالة. عند عودتهم إلى البحرين وبعد سوء حالة السيد كاظم الصحية بادر هذا الرجل بزيارته في المستشفى.

كانت نهاية اللقاء مرّة، ذكرتني بتلك الحيرة في مطار البحرين، الفرق أنني صرتُ لا أعلم هل ألتقي السيد كاظم مجدداً أو لا؟ كانت الدموع تغالبني في الليلة التي سأسافرُ فيها من مشهد، رافقتُ الشهيد إلى غرفته الخاصة كان يستندُ عليّ في مشيه، أم أنا الذي أستندُ عليه، لا أدري! لاحظتُ في الغرفة أن ليده ثوبين، ثوب أبيض والآخر أخضر، ارتدى الثوب الأبيض، فسألته من أين جلب هذان الثوبان، فقال إن الأبيض قد ابتاعهُ من الرحلة الأخيرة إلى شيراز، أما الأخضر فهو ثوب السجن، الذي كان يُصلي فيه.

ودعتُه وأهديتُه قميصاً أسوداً ليرتديه في عاشوراء، طلبتُ منه السماح على التقصير، كان قلبي يخبرني بأنه الاجتماع الأخير، بكيتُ وبكى مرافقه،

استجمعتُ شتات نفسي المكلومة، ورحتُ أحدثُه عن الصبر والثبات، ولا أدري أكنتُ أحدثُه أم أحدّث نفسي الخائرة أمام الفراق؟! قبّلتُ رأسه وهممتُ بالانصراف، فناداني:

- أخي، خذ الثوب الأخضر لك

- لا أخي، خلها عندك، ريحة السجن هذي. قلتُ رافضاً.

- خذها أخي خذها

كدتُ أن أرفض مجدداً، لكن مرافقه أشار إليّ بأن آخذ الثوب.. "لكل اجتماعٍ من خليلين فرقةُ.. وكل الذي دون الفراق قليلُ».

جنديٌّ مغرم

أثناء تواجد السيد كاظم في مدينة مشهد المقدسة جاء بعض الأصدقاء لزيارته في مقر إقامته للسلام والاطمئنان على صحته، فاستقبلهم السيد بكل ترحاب وودّ وكأنما هو المُعافى، وأثناء الحديث، تكلّم أحد الأصدقاء عن وصول الفقيه القائد آية الله قاسم إلى مدينة مشهد للمشاركة في احتفال بحرم الإمام علي بن موسى الرضا(ع) بمناسبة عيد الغدير الأغرّ، وما إن سمع السيد ذلك تغيّرت ملامحه وصار يبتسم تلك الابتسامة الخجولة البريئة الطاهرة، وأعقبها ملامح حسرة على وجهه.

سألناه عن سر هذه الابتسامة المصحوبة بالحسرة، قال: لا شي، لكن أحد الأصدقاء تنبّه إلى السبب وقال ألم تذكروا الفقيه قاسم؟ إن السيد كاظم متعلق جداً بسماحة الشيخ، فابتسم عندما سمع ذكره وعرف أنه في مدينة مشهد وقريب منه، ولكن تحسر بعدها لأنه لا يستطيع أن يلتقي به بسبب الوضع الصحي للسيد.

أخذ أحد الاخوة المبادرة وبدأ بسرد عدداً من القصص عن الفقيه القائد، وبعد مدة وبينما نحن جالسين نستمع للقصص والمواقف، دخل أحد الاخوة على عجل وأعطى السيد كاظم هاتفه وقال له:

تفضل مكالمة لك ..

وضع السيد كاظم الهاتف على أذنه فتغيّرت ملامحه فوراً، وهمّ يريد

الوقـوف علـى قدميـه، فأعانـه الـذي بجانبـه علـى الوقـوف. تعجبنـا جميعـاً والتزمنـا الصمـت، فلـم نشـهد السـيد بهـذه الحالـة مـن قبـل أبـداً، إلـى درجـة حالتـه هـذه شـغلتنا عـن السـؤال عمـن يتحـدث معـه!

بعـد دقيقتـين أغلـق الهاتـف، وجلـس السـيد كاظـم مـن جديـد فسـألناه ممازحـين:

- من المتصل

- «أريد الذهاب لحرم الإمام الرضا(ع) لصلاة المغرب»، قال السيد كاظم

وجّهنا السؤال لصاحب الهاتف، فأجاب:

- صديق عزيز على السيد كاظم

- فرد السيد كاظم:

للأسـف لسـتُ أهـلاً لاكون صديقـاً لـه، ولـو أنهـا إحـدى الأمانـي.. واقـع الأمـر هـو القائـد، وأنـا جنـديٌ مغـرمٌ بقائـده، وهـو الفقيـه آيـة اللّه قاسـم.

لقاءٌ في الجنة

مـع بدايـة الأسـبوع انتشـر المـرض بسـرعة غيـر معهـودة في جسـد السـيد كاظـم، وكان يعانـي مـن التنمّـل الـذي لا يـكاد يفـارق سـاقه اليسـرى، فثقلـت حركتـه وأصبـح قليـل الحركـة والتنقـل.

وفي منتصـف الأسـبوع اشـتد بـه الحـال حتـى فقـد القـدرة علـى المشـي نهائيـاً، ولكنـه كعادتـه ثابـت صابـر محتسـب لـم يبـدِ أيّ انزعـاج أو ضجـر، ولكـن الملفـت أنـه لـم يعـد يلـحّ لكـي نأخـذه لزيـارة حـرمَ الإمـام علـي بـن موسـى الرضـا(ع)، وكان هـذا غيـر معهـود منـه فرغـم المـرض والألـم كان يصـر علـى الزيـارة بشـكل يومـي سـابقاً.

فسـألته مازحًا:

أكفرت باللّه أم فقدت ثقتك بالإمام؟

فرد علي بابتسامة المطمئن الواثق المتحسر ..

لا هـذا ولا ذاك، وإنمـا أخشـى أن أثقـل عليكـم فحركتـي الآن أصعـب، وإلا فـإن واقـع الأمـر أن قلبـي كلـه لهفـة وشـوق لزيـارة الإمـام، قالهـا بمـرارة.

كنا نتألم لألمه فما باليد حيلة، العين بصيرة واليد قصيرة عن مساعدته وإعانته في مرضه، وكان الوضع الصحي للسيد كاظم غير مستقر ويشتد تدريجياً، رغم ذلك أراد أن يذهب لصلاة المغرب في الحرم الرضوي الشريف، وكان يسأل عن إمكانية ذالك باستحياء شديد، لأنه أصبح بحاجة لكرسي متحرك للتنقل، ولعلمه أن الليلة هي ليلة عيد الغدير الأغر فالحرم الرضوي سيكون مزدحماً جداً بالزوار في هذه الليلة.

ذهبنا إلى حرم الإمام ابن موسى لأداء صلاة المغرب، وبعد الانتهاء من الصلاة استجابةً لطلب السيد كاظم، طلب أن نأخذه لأقرب مكان ممكن لضريح الإمام لقراءة زيارة أمين الله هناك، تردّدنا أول الأمر لأنه مريض وأوجّ الازدحام كان داخل الحضرة الرضوية، إذ كان الزوار يتوافدون من مختلف الاقطار لزيارة الإمام وتهنئته بعيد الغدير، وواقع الأمر أن الوصول للضريح متعب جسدياً بالنسبة للشخص السليم فكيف بمن هو في مثل وضعه.

لكن مرضه كان دافعاً لنا لأخذه لأقرب نقطة ممكنة من ضريح الإمام، خاصة وأن زياراته أصبحت نادرة جداً، ولأن وضعه لا يسمح له بالزيارة كل يوم، كان لابدّ لنا أن نلبي طلبه في هذه الليلة المباركة.

من زار الامام الرضا في ليلة عيد الغدير يدرك كم هو من الصعب الوصول إلى ضريح الإمام في هذه المناسبة، لكنني لا أبالغ حين أقول إن المسارات التي كنا نسير فيها كانت تفتح، وكان الناس ينفرجون من بين أيدينا حتى تمكنا من الوصول إلى ضريح الإمام بمساعدة خدّام العتبة!

بقي السيد كاظم محتضنًا ضريح الإمام لدقائق، وأشار لنا خدمة الإمام بأن نفسح المجال لغيره من الزوار، كنا نخبره بأن الوقت قد حان لنغادر، لكنه كان في عالم آخر ولو يكن يسمعنا أصلاً ولم ينتبه لحديثنا إلا بعد أن حركنا جسمه.

هممنا بالخروج، وتزامن خروجنا مع قراءة دعاء كميل في الصحن الرضوي، وكان الاتفاق أن نعود مباشرة بعد الصلاة بسبب الوضع الصحي للسيد، ولكن ما إن سمع دعاء كميل هناك حتى طلب وباستحيائه المعهود بأن نبقى للمشاركة في الإحياء.

كنا نعلم وقتها أن آية الله قاسم سيشارك في الإحياء أيضاً، فلم نخبر السيد كاظم كي لا يشقّ على نفسه رغم المرض والتعب ليحضر الإحياء،

ولكن حين طلب منا البقاء للاستماع لدعاء كميل اتجهنا للمشاركة في الإحياء في الرواق الذي يتواجد فيه آية الله قاسم وهو رواق خاص بالزوار العرب والذين كان غالبيتهم من البحارنة.

بعد الانتهاء من الدعاء مباشرة صعد الفقيه المنصة، وآذاننا معه وعيوننا على السيد، وما إن وقع صوت سماحة الشيخ في أذنه حتى ارتسمت على محياه تلك ابتسامة عريضة ولم تفارقه طوال الكلمة.

مع نهاية كلمة الشيخ توافد بعض الحاضرين للسلام على السيد كاظم والدعاء له بالشفاء، وكان أكثرهم لا تربطهم به أيّة علاقة أو معرفة مسبقة وإنما يعرفونه من خلال وسائل الإعلام التي سلطت على الضوء على قضيته.

بادر أحد الشباب ممن يعرف السيد كاظم بالذهاب لمرافقي سماحة الشيخ قبل أن يغادر وسألهم عن إمكانية أن يأتي السيد كاظم للسلام عليه قبل أن يذهب، وكان سماحة الشيخ والسيد كلاهما مقعد على كرسي متحرك.

كانت ثوانٍ معدودة، تقدّم آية الله قاسم ناحية السيد كاظم وأُخبرنا السيد أن أمامه سماحة الشيخ أمامه، فلم يتمالك نفسه وحاول النهوض بكل قوته، فأسندته حتى قام على رجليه، فمدّ يده للسلام وقبّل كل منهما جبهة الآخر.

لم أدرك تفاصيل ما جرى كثيراً لأنني كنت مهتماً بالحفاظ عليٍ حركة السيد كاظم وسلامته، ولكن أثناء خروجنا تقدم أحدهم مسرعاً ناحية السيد وقال له، الشيخ يبلغك السلام ويقول: «قولوا له، كل ليلة، الين راح إلى الوسادة يفكر في الدنيا والآخرة».

هيهات

أثناء تواجده في إيران، اتصل بي السيد كاظم وبعدٍ حديث طويل أخبرني أنه سمع الطبيب يقول بأن فترة حياته قصيرة جداً! كان يتكلم بطريقة لا يبدو فيها بأنه متفاجئ من الخبر، وكأنه كان يعرف بذلك منذ مدّة رغم أننا كنا نتجنب إخباره بكلام الأطباء بصورة مباشرة.

حدثني حينها بأنهم قريباً سيزورن الإمام الرضا، وكنت أتذكر أنه يردّد هذا الدعاء كثيراً «اللهم احشرني مع محمد وآل محمد، ولا تفرق بيني وبينهم طرفة عين أبداً في الدنيا والآخرة».

قلت له ممازحاً:

إذا أردت من الله أن يشفيك اترك هذا الدعاء. فمقام محمد وآل محمد عظيم جداً ولا يمكن أن نصل إليه بعملنا، فعندما تطلب من الله هذا الطلب فإنه يبتليك حتى يرفع مقامك عنده ليرفعك معهم. فنصيحتي اترك هذا الدعاء يرفع الله عنك البلاء، وتعود إلى سابق عهدك صحيح معافى.

فأجابني: هيهات.

وقلت له هذا الكلام مجدداً في أواخر حياته، وكان حينها لا يستطيع الكلام فأشار بوجهه بأنه لن يترك هذا الدعاء.

موقف

بعد عودته من الجمهورية الإسلامية تدهورت صحة السيد كاظم بشكل كبير، وكان المرض قد انتشر بشكل رهيب في أنحاء جسده، ولم يفارق الفراش والمستشفى.

أتذكر هذا الموقف معه في المستشفى وكأنه يحدث أمامي الآن، كان السيد مُتعب جدًا، وقليل التركيز مع من حوله، وكان لا يستطيع الحديث بسبب المعدات الطبية والأنبوب الذي وُضع في فمه.

ألقيت عليه السلام، ولاحظت أن حاله متغيرة بصورة لم أعهده عليها، قلت:

سيد، كن على يقين تام بأن الله سبحانه وتعالى في كل رمشة عين له لطف عليك وعلى البشر أجمعهم.

حين قلت له هذه الكلمات تغيرت ملامح وجهه، وبدت عليه ابتسامة وانشراح صدر.

زيارة غير متوقعة

كانت الأنباء تتسلّل إلينا من بين القضبان الحديدية، لتخبرنا عن أوضاع السيد كاظم. كُلّ الأخبار لا تُبشرُ بخير وحالته الصحية آخذةٌ في التدهور بلا هوادة. أما ونحن بداخل السجن فإننا نزداد غماً إلى غمّ، وأقسى الغمّ قد نزل في فؤاد أخيه.

كان أخوه يتلوى ألماً على أخيه الذي كان بجانبه، وابتعد عن عينيه وهو طريح الفراش، يُعاني من مرض عضال وبلغ الشوق فيه ما بلغ للقاء أخيه مرةً أخرى ولو تكون الأخيرة.

حين لاحظنا حالته النفسية السيئة وانشغاله بالتفكير دائماً في أخيه، والبسمة التي فارقت وجهه منذ أن أُفرِج عنه، طرح أحد الأخوة فكرةً غريبة لكي يخرج لزيارة السيد كاظم في المستشفى. كانت الخطة باختصار أن نفاوض أحد الشرطة من الحراس بأن يأخذ السيد هاشم للزيارة مقابل مبلغ من المال.

تفاوضنا مع أحد هؤلاء المرتزقة المرتشين، ووافق على الخطة مقابل ٢٥٠ ديناراً، مبلغٌ ضخم كان جمعه صعباً ولكنه ليس مستحيلاً. قمنا بالإعلان بين المعتقلين عن جمع لهذا المبلغ بهدف مساعدة عاجلة لأحد الأخوة، فانتقل الخبر من عنبر إلى آخر، حتى نجحنا في جمع المبلغ خلال ٣ أيام.

عدنا للشرطي وأخبرناه بأن المبلغ أصبح جاهزًا لكننا لا نسلمه المبلغ كاملاً إلا بعد أن يعود السيد هاشم من زيارة أخيه، فتجاربنا مع هؤلاء الممتدة لسنوات أعطتنا الخبرة الكافية لمعرفة كذبهم واحتيالهم على المعتقلين، فالمرتشي لن يكون صادقاً في يوم من الأيام.

***

دخل شرطي إلى الزنزانة منادياً:

- السيد هاشم عباس

- نعم

- مطلوب لدى الإدارة.

كنت قلقاً من سبب استدعائي للإدارة، واجتاحت أفكار سوداء عقلي، موت؟ رحيل؟ فراق؟ قطع حبل أفكاري صوت الشرطي من جديد:

بتطلع الحين زيارةٍ لأخوك في المستشفى، ما نبي مشاكل هناك، ولا تسمح لأي أحد يصور أبداً.

وقفت مدهوشًا بين يديهم، فيما كانَ الشرطي يقوم بتقييد يدي، ثم سلسلةُ حديدية تلتف حول اليدين والرجلين معاً، ثم أركبوني في الحافلة، وانطلقنا نحو مستشفى الملك حمد.

أينَ كنتُ وأين أصبحت؟ بين لحظة ولحظة يأتي الفرجُ من حيث لا تحتسب! هناكَ ربٌ يُدبّر الأمر كيف يشاء. استغرقت الرحلة إلى المستشفى ساعةً، أقل أو أكثر، لا أعلم فطوال المسافة لم أكن أفكر في أي شيء كأن عقلي توقف. هل أريد الذهاب إلى زيارة أخيٍ السيد كاظم حقاً؟ هل سأراه على فراش المرض؟ تُرى كيف أستقبله مجدداً ويستقبلني؟ ماذا سأقولُ له؟ هل تُراه يلومونني، أنا أخوه الأكبر الذي لم يُسعفه ولم ينجح في الحفاظ على صحته؟! آلافُ الأسئلة كانت بلا إجابة.

"انزل".. تبًا لهذا الشرطي.

متى وصلنا أصلاً؟ ومتى فتح الباب؟! لا أعلم.

جلب الشرطة كرسيًا متحركًا أجلسوني عليه وألقى عليّ رداءاً أبيضاً يغطي يدي وأقدامي كي لا يرى المرضى والزائرين القيود.

حين اقتربنا من الغرفة التي يرقد فيها السيد كاظم، أوقفوني في أول الردهة، ودخل شرطي إلى الغرفة وأخرج كل المتواجدين فيها، أمي، زوجتي، أختي الكبرى، وأخي إضافة لأحد الأصدقاء. آه، إنّه أمرٌ آخر لم أكن مستعدٌ إليه، هكذا صرخ عقلي، فيما قفز قلبي معانقاً كل واحدٍ منهم فهو لا يتذكرُ آخر لقاء معهم!

تقدم الكرسي المتحرك باتجاه الغرفة، جاءت والدتي وزوجتي تهرولان نحوي، فيما كان يفصل بيننا شرطي آخر. صُدمت والدتي حين رأتني مغطى اليدين والرجلين، لكأنّها تقول يكيفني السيد كاظم يا بُني، فأخبرتها أنه مجرد غطاء لأني مقيد، لكنّها لم تتحرك قيد أنملة وأصرت أن تُسلّم

عليّ وتضمني وتقبلني ودخلت في مشادةٍ مع الشرطي إلى أن وافق بنهاية المطاف فقد كان على عجلة من أمره ويريد إعادتي إلى السجن بسرعة.

ضمتني أمي إلى صدرها، آه، لكنّي لم أبكِ، بلّلت دموعها كتفي لكنّي كنتُ أحبس الدمعة. يشتاقُ الابنُ إلى أمه ويشعر بالأمان في حجرها، لكنّ شعوري يختلفُ اليوم، لبرهة أحسستُ بأنّ أمي تشعُر بالطمأنينة في حضني، لم تدُم طويلاً حتى نزع الشرطي روحي من بدني.

نظرتُ خلف أمي، زوجتي تبكي، أختي تصيح، نزلت دمعةٌ من أخي بعد صراع، فيما أشاح الصديق وجهه في الاتجاه الآخر وأدخلوني بسرعة إلى الغرفة.

لم أستطع ان أتمالكَ نفسي، وانفجرت الدمعةُ من عيني بصمت رهيب خيّم على الغرفة، رأيت السيد كاظم على فراشه يدير عينه يميناً وشمالاً ينتظرُ أن يسمع صوتَ القادمين إلى زيارته. أوقف الشرطي الكرسي المتحرك قرب الفراش، وبقي الشرطةُ الثلاثةُ في زاوية الغرفة فيما كان الرابع يقف خارجاً أمام الباب.

استجمعتُ قواي، وألقيتُ السلام على السيد كاظم بصوتٍ مبحوح، سألته عن حاله، جوابه لم يتغير منذ أن كان في السجن «الحمدُ لله أنا بخير» وعاجلني بالسؤال بلهفة عن السجن ورفاق القيد مبلغاً تحياته وسلامه ودعاءه. رحت أدلّك يديه ورجليه، حدّثتُه بما استطعت من كلمات لا أدري من أين أتت:

"أخي توسّل بأهل البيت(ع)، إذا أردتَ أن تكون جندياً للإمام فعليك أن تتحمّل، واشكو حالك له كُلما تتألم فهو يسمع».

الليلة الأخيرة

كنت أذهب بشكل يومي لزيارة السيد كاظم في المستشفى، وفي بعض الأيام كنت أذهب مرتين للقائه. كان حديثنا معه يقتصر على السؤال المغلق، ليجيبنا بتحريك رأسه أو جفن عينه، فهو لم يعد قادراً حتى على الكلام.

أثناء هذه الزيارة كانت حالته الصحية سيئة بشكل كبير وغير مسبوق، فخرجت من عنده إلى الممرضة، وسألتها عن حالته.

قالت بنبرة حزينة:

- ماذا تتوقع؟

- إنّه يموت ببطئ. جرت دمعة على خدي مسحتها بسرعة

- لا شيء صعبٌ على الله

خرجت مسرعاً من المستشفى، كفكفت دموعي واتصلت بأحد المقربين جداً من السيد كاظم وكان أسوأ حالاً مني، أخبرني أنه كان في زيارة السيد قبل مجيئي، وأن السيد كان يحاول أن يقول له شيء لكنه لم يكن يفهم مراده على غير العادة.

وصلتُ إلى المنزل، مباشرةً دخلتُ للاستحمام، كان جسدي يرتجف تحت الماء رغم أن الجو ليس بارداً، خرجت ووقفت للصلاة، قرأت صفحتين من كتاب الله المجيد، فعاد الاطمئنان إلى قلبي.

أدرت محرّك السيارة، واتجهت مجدداً إلى المستشفى، فوجدت عائلة السيد كاظم خارج الغرفة، وأخبروني أن الأطباء يمنعون الجميع من الدخول إليه. لم أعرهم أي اهتمام وذهبت إلى الممرض الذي أمرني بالبقاء في الخارج، سألته لماذا؟ ما الذي يجري؟ وبقيت ألح عليه كي يسمح لي بالدخول.

ابتعد قليلاً ليتحدث إلى أحد أقرباء السيد فاندفعت إلى الغرفة بهدوء، نظرت إلى السيد كاظم، ملقاً على الفراش، عيناه ترمشان ببطئ، صوت الأجهزة الطبية يرّن، فيما يحيط به أربعة من الكادر الطبي، الذين ما إن انتبهوا لوجودي في الغرفة حتى أمروني بالخروج وإلا سيقومون باستدعاء الأمن؟

وقفتُ خارج الجناح، أنتظر مع أحد الأصدقاء الذي وصل قبل قليل، وكانت أعيننا لا تفارق باب غرفة السيد كاظم. بعد برهة خرج الأطباء يدفعون سريره إلى المصعد، وبقيت واقفاً أمام المصعد حتى توقف في الطابق الثالث حيث العناية القصوى.

عدتُ إلى المنزل، وكان قلبي يحدثني عن مأساة قادمة، كنت قد قرأت في أحد الكتب أن الإنسان يألف عاجلاً أم آجلاً فكرةً موته، لكنه لا يألف فكرة موت الآخرين. خلدتُ إلى النوم على أمل أن الصباح يغير الأقدار.

استيقظت صباح اليوم التالي، وصعدت حافلة العمل، وطوال الطريق كنت

أفكـر في السـيد كاظـم وزيارتـه اليـوم، هـل سيسـمحون لنـا بالدخـول إليـه أم سـنُنمع كمـا البارحـة؟! وصلـت الحافلـة إلـى العمـل ترجلنـا جميعـاً، وقـف أحـد الزمـلاء في العمـل يبكـي بشـكل هيسـتيري وسـط الشـارع، كان يواجهنـا بظهـره، اقتربـت منـه، ووضعـت يـدي علـى كتفـه، اسـتدار، والتقـت عينـي بعينـه، ضمنـي إلـى صـدره وكنـت كالجثـة لا أحـرك سـاكناً، هـوت الدمعـة مـن عينـي.

قال بدموعه السائلة: استشهد السيد كاظم.

ملحقـــات

(١)

أقيمت في سجن الحوض الجاف وسجن جو المركزي مجالس عزاء لروح الشهيد السيد كاظم، وفي اليوم الأخير أقيم حفل تأبيني بمشاركة عدد من المعتقلين.

أرسل سماحة الشيخ زهيرعاشور رسالة:

إنا لله وإنا إليه راجعون

إلى حبيبي ونور عيني الهاشمي...

عظّم الله لك الأجر بشهادة أخيك السيد كاظم، أهنئك على هذا الشرف، حيث اتخذ الله تعالى من منزلكم هذه الوردة لتكون لكم وسام شرف في الدنيا و شفيعاً لكم في الاخرة .

ولدي...

لقد كنت على تواصل دائم مع الشهيد وأخبرني (فلان) أنه الآن في العناية المركزة، إلا أنه طمئنني بأن حالته مستقرة. على كل حال، منذ اليوم الأول من الحديث معه كان الواسطة (فلان) في مبنى ١٣، وبعد أن حدّثته وحدّثني أيقنت بأنه سافر من هذا العالم إلى ذلك العالم، قلت لهم: السيد كاظم يتكلم بلغة أهل الجنة، إنه ليس في هذا العالم لقد كُشِفَ له الغطاء وتحرّر من عالم المادة ومن هذا البدن، إنه من أهل الجَنة، ومنذ ذلك اليوم لم أتوقف عن الاتصال به فحديثه كان يؤنسني ويبث فيّ الروح والعزيمة، لقد كانت نبرة صوته لها روحانية خاصة فرحمة الله عليه وسلام على روحه الطاهرة.

نور عيني، الشهيد السيد كاظم كان موفّقاً في الحياة وموفّقاً في الممات، فقد عاش مثابراً مجاهداً كُتِبَ له شرف السجن، وبعد ذلك اختاره الله

تعالى بهذا المرض ومن ثم رحل إلى الملكوت بثوب الشهادة.

نور عيني حق لك أن تبكي، وتذرف الدموع على هذا الشاب، فأنا الذي لم أره في حياتي وإنما سمعت صوته الملائكي، ما إن علمت بشهادته حتى أظلمت الدنيا عليَّ وضاق صدري من عظم المصاب.

بني العزيز، هذا الطريق الذي انتخبه الشهيد وسرنا عليه هو طرق ذات الشوكة ولابدّ أن نقدّم الشهداء والسجناء والجرحى وكل ذلك بعين الله تعالى. تجلّد الصبر يا نور عيني وازدد عزماً وقوة فأنت من سلاسة رسول الله(ص) الذين كانوا وما زالوا في الصفوف الأمامية في تقديم كل شي في سبيل الله تعالى ومن أجل دينه.

حبيبي أستودعك الله تعالى فأنت بعين الله والشهيد حاضر بيننا وسنلتقي به قريباً

ولا تنساني من دعواتك وادعُ لي بالشهادة،،

والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته

ابو مؤمل

(٢)

كما ألقيت كلمة باسم عائلة الشهيد، ننقل جزء منها:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله حمد الشاكرين

إنا لله وإنا إليه راجعون..

عظّم الله لكم الأجر جميعاً بشهادة أخيكم السيد كاظم..

في مدرسة الحسين(ع) مبادئ يجب أن نتذكرها باستمرار، ويمنّ الله علينا بالشهداء لكي نرى بام أعيننا هذه المبادئ حية لا تموت .

في مدرسة الحسين(ع) :

١- الانطلاق للعمل بنية خالصة لله، وهكذا سار شهيدنا السيد كاظم في انطلاقته. قلبه مرتبط بالله وبدولة الإمام المهدي (عج).

٢- لا مكان في مدرسة الحسين(ع) لانتظار الجزاء من الناس أو انتظار مواصلتهم الطريق معك، سار الشهيد السيد مؤمناً بأنه يؤدّي تكليفه الإلهي متمنياً أن يسير الناس كلهم معه ولكنه مستعد للمضي ومواصلة الطريق وحيداً، وهكذا كان. وفي آخر لحظات حياته كان زواره في المستشفى يسألونه هل أنت نادم؟ رغم عدم مقدرته على الإبصار ولا على الكلام ومع أن المرض كان يفتك بكل عضوٍ من أعضاء جسده، كان رحمه الله يهز رأسه رافضاً الندم ورافضاً الاستسلام.

كان الشهيد السعيد يستعين بزيارة أمين الله في السجن قبل المرض، وفي السجن وهو مريض وطوال فترة العلاج، وحتى آخر أيامه في هذه الدنيا كان يحرك شفتيه بدعاء «اللهم اجعل نفسي مطمئنة بقدرك راضية بقضائك مولعة بذكرك ودعائك محبة لصفوة أوليائك محبوبة في أرضك وسمائك صابرة على نزول بلائك».

في الأسابيع الأخيرة من مرضه زاره مجموعة من الشباب وكان وضعه الصحي متدهوراً، ويتواصل معهم عبر تحريك رأسه وشفتيه. حرّك رأسه وحرّك رأسه واستمر في تحريكه، وكان الإخوة يحاولون فهم ما يريد أن يقول، وبعد سؤال وسؤال، اتضح أنه يريد أن يسمع آيته المحبّبة إلى قلبه، فقرأ أحد الإخوة الآية، والسيد الشهيد يحركِ شفتيه معه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» ثم قرأ: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ».

ملامـــح

في مواجهة مع قوات النظام

في مناسبات أهل البيت

إحياء ليلة القدر

في عاشوراء الإمام الحسين

مدونة رفاقه السجناء

مع شقيقه في السجن

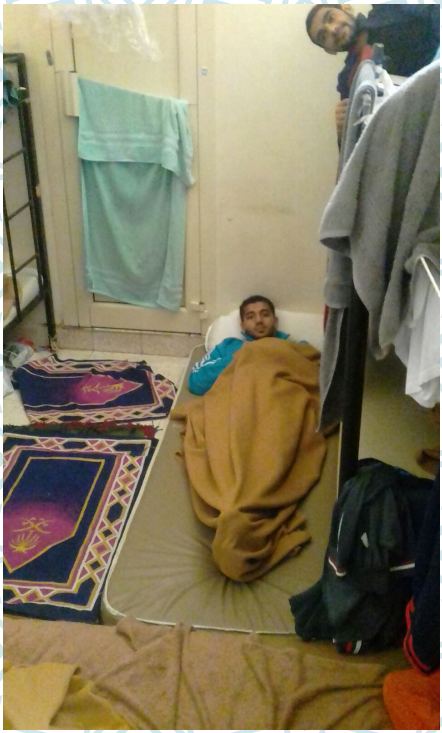

صور متفرقة في السجن

على سرير العلاج بعد الإهمال الطبي في السجن

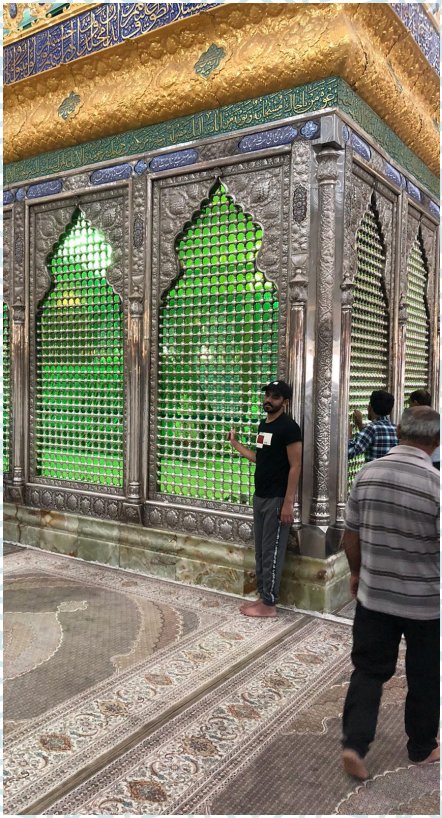

في زيارة لمرقد الإمام الخميني

الوداع الأخير

الفهـــــــرس

رَبَّيْتَني في نِعَمِكَ

سـمّيتُه كاظـم ١٢

فتـى الإيمـان ١٣

المتفانـي ١٣

أمـين بالفطـرة ١٤

خالفت الموعد ١٤

ممهد منتظـر ١٥

الحصـن الحصـين ١٥

صحيفـة الأحـرار ١٦

لا للشـعب المسـتورد ١٦

في مَيادِينِ السابِقِينَ

صحـوة الربيـع ١٨

يـوم الثـورة ١٨

ميـدان الشـهداء ١٩

الإعتقـال الأول ١٩

بصيـرة مجاهـد ٢١

الإعتقـال ثانـي ٢١

فـداء لزينـب ٢٢

القائـد الميدانـي ٢٣

لقـد ضربنـي ٢٣

إنـي نـذرت نفسـي ٢٤

اسـمك معـروف عندنـا ٢٥

مـع ثـوار البحريـن ٢٦
أولئـك الفتيـة ٢٦
المثلجـات ٢٧
إصـرار وعزيمـة ٢٧
الإصابـة ٢٨
اختـلاف لا خـلاف ٢٩
ملامـح غربـة ٢٩
تدريـب ٣٠

مُطْمَئِنَّةً بِقَدَرِكَ

الاعتقـال الثالـث ٣٢
في المحطـة الأخيـرة ٣٢
محطـات الأسـر ٣٥
في سـجن الحـوض الجـاف ٣٦
النصـر بـالله أتـى ٣٨
أمـين الصنـدوق ٣٨
خذوهـا للحـراك ٣٩
لقـد أديـت ٣٩
العاشـقُ ٤٠
نـذلّ أنفسـنا! ٤٠
التكافـل الاجتماعـي ٤١
الـروح الحـرّة ٤١
دمـثُ الأخـلاق ٤٢
لا عدالـة ٤٢
سـجن جـو المركـزي ٤٣
العمـل الثقـافي ٤٣
لأكـونَ مـن أنصـاره ٤٤
الصديـق الحقيقـي ٤٤

مـع العلمـاء ٤٤
إضـراب لبيـك يـا حسـين ٤٥
لا زيـارات عائليـة ٤٦
بـوادر المـرض ٤٦
ملامحـه متغيـرة ٤٧
أنـا اخسـر أخـي ٤٨
مُشْتاقَةً اِلى فَرْحَةِ لِقآئِكَ
الافـراج ٥٢
صابـرًا محسـتبًا ٥٢
علـى الفـراشِ ٥٣
بدايـة العـلاج ٥٣
رحلـة العـلاج ٥٤
العـودة الأولـى ٥٥
إلـى ضامـن الجنـان ٥٥
لقـاء ٥٥
جنـديٌ مغـرم ٥٧
لقـاءٌ في الجنـة ٥٧
هيهـات ٥٩
موقف ٦٠
زيـارة غيـر متوقعـة ٦٠
الليلـة الأخيـرة ٦٢
ملحقـات ٦٤

من أهل الجنة